آکیتیا

جادالله الجباعي

آكيتيا

دار الحصـــــــــــاد

طبـاعـة ـ نشـر ـ تـوزيـع

سورية ـ دمشق

ها 2134692فا

2126326

alhasad@scs- net.org

طبعة أولى: 2011

جاد الله الجباعي

آكيتـيا

رواية

حين تُطيل التأمل في وردة

جرحت حائطاً، وتقول لنفسك:

لي أملٌ في الشفاء من الرمل/

يخضر قلبك.

إذا صرخت بكل قواك

ورد عليك الصدى [من هناك]

فقل للهوّية: شكراً.....

محمود درويش

(الصليب المالطي محشواً بصلبان صغيرة)

(الألف السادس ق.م _ سامراء)

المحتويات

العنوان	الصفحة

إلى كل الأسماء المنسية

على صليب الذاكرة وصليب التاريخ

إلى كل الذين لم أعرفهم بعد

ولم يُكتب صفح لهم ولا فصح

مدخل

ليست الغاية من هذا المدخل أن يكون تقديماً للنص يشرح مقاصده أو يحل رموزه فيحرمه من إمكانية تعدد القراءات التي تغني النص وقد تولجه في فضاءات جديدة. فأنا على قناعة أن كل قارئ هو كاتب للنص يعيد تشكيله تخيلياً بطريقة ما، ذلك لأننا نتعامل مع الأدب، والأدب يقوم على الرمز والمجاز وهو ما يعطيه تلك المرونة الكبيرة في التشكيل، والإمكانية غير المحدودة للتأويل، وتعدد أوجه التفسير.

إنما أردت من هذا التمهيد أن يكون بسطاً لبعض الرموز التي اتكأ عليها السرد، وتوضيحاً أولياً لمجازاتها التي قد تكون جديدة لدى بعض القراء، رغبة مني في أن يكون فضاء النص مألوفاً للجميع فيزيد متعة التجول فيه من دون أن يفرض طريقاً واحداً، أو حدوداً ضيقة. ونزولاً عند رغبة الكثيرين من الأصدقاء والقراء، ونقدهم المحق لتجربتي السابقة في روايتي (**أفاريز الشبابيك الوهمية**) إذ ألمح بعضهم إلى أن غرابة بعض الرموز أو عدم انفصاحها الكامل، قد غيب إمكانية الإحاطة بفكرة العمل في كثير من الأحيان.

لذا سأشير إلى بعض الرموز التاريخية أو الأسطورية الموظفة في سياق النص بتوضيحٍ يبسط معانيها، ويخفف من حمولة الهوامش، من دون أن أسهب في شرح الغاية التي وظفت لأجلها، فتلك مهمة النص، وأنا وحدي المسؤول عن أي قصور يحول دون وصول الفكرة إلى القارئ الكريم.

وأول هذه الرموز وهو ما جعلته عنوناً أساسياً للنص:

(**آكيتيا**) - كلمة سومرية أصلها (آكيتي) من الجذر(**آكيتو**) حسبما أشار خزعل الماجدي، وتعني عيد رأس السنة البابلي، وأقدم صيغة معروفة للكلمة هي (آ. كي. تي) 2400ق م، وتعني **مجازاً** تقريب الماء إلى الأرض أو الاستسقاء والخصب، ومن المعروف أن السنة البابلية تبدأ بالربيع، وهذا العيد الرمزي ربما تحول فيما بعد إلى ما نعرفه من الأسماء المتعددة لعيد الربيع، ومنها عيد النيروز لدى الفرس والكورد وبعض الشعوب الأخرى. وقد استخدمت الصيغة القديمة للاسم من "آكيتي" مع تحريف صوتي ليصبح "آكيتيا" اسم علم مؤنث.

(**المندالا والسواستيكا**) "المندالا": ((دائرة تنقسم إلى أجزاء متناظرة تنشد كلها نحو المركز، أو تشع منه في تكوين جمالي متماسك))،

ويشير الرمز إلى فرد مركزي عظيم يحيط به الكون، أو إلى انبعاث الكون منه، ((وكأنه المطلق الذي تدور حوله التفاصيل)) وسواء كان المركز هو الله، أو الإنسان، فإنه في كلتا الحالتين يشير إلى الكلية والكمال. ولقد شكلت "المندالا" والصليب المتلازمان رمزاً لما كان يسمى بتربيع الدائرة وهو الأمر الذي شغل اليونان والعرب لاحقاً، وكانا كذلك أعظم رمزين للمسيحية في القرون الوسطى. كما يدل تلازم "المندالا" والصليب على تلازم "المندالا "(الكون) والجسد الإنساني (السواستيكا) ودوران الجسد في الكون بطريقة إخصابية لا تنتهي، سواء عن طريق الجنس في حركة الرجل مع المرأة، أو في رقص المتصوفة الذي تتشكل فيه فردياً أو جماعياً أشكال(المندالا والسواستيكا) معبرة عن الكلي والمخصب في آن. ولابد من الإشارة حسب خزعل الماجدي. إلى أن رموز(المندالا والسواستيكا) المعبر عنها برقصة "آكيتي" أو "آكيتو" وأشكالها المتعددة قد ظهرت في وقت باكر في سامراء ثم أصبحت رموزاً شاملة للإنسانية كلها وما زالت. وأن رمز الصليب المعقوف(السواستيكا) الذي اتخذته النازية شعاراً يدل على عراقة ثقافية هندوأوربية قد ظهر قبل ذلك(في الألف السادس قبل الميلاد) في الثقافة العراقية القديمة في سامراء

بأشكال متعددة، ليس هنا مجال نقاشها، لكن يمكن الرجوع إلى خزعل الماجدي في كتابه (أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ).

(أحيقار)- وزير الملك "سنحاريب" الأشوري، وحكيم نينوى الذي تركت حكمته أثراً بيناً لدى سائر الشعوب القديمة، كاليونانيين والمصريين والعبرانيين والعرب وغيرهم. وتشير الكثير من الدلائل حسب الأب سهيل قاشا إلى أن مدوني العهد القديم كانوا مطلعين على الحكمة العراقية القديمة ولا سيّما حكمة "أحيقار" ومنها اقتبسوا النصوص الحكمية التعليمية، التي جاءت متشابهة في أكثر من سفر من أسفار العهد القديم، مثل (سفر الحكمة وسفر الأمثال وسفر الجامعة وسفر يشوع ابن سيراخ ..). وسواء كان "أحيقار" باللغة الأرامية اسم علم لشخص حقيقي عاش في عهد "سنحاريب" (704- 611ق م) أو ابنه "أسرحدون" (680 - 669ق م) أو غيره من ملوك آشور، أو كان اسماً رمزياً لوظيفة أو مهنة أو درجة كهنوتية من نوع مستشار الملك أو حكيم البلاد .. أو باختصار (الرأس الثالث في مثلث السلطان) فإن لهذه الشخصية وجوداً ظاهراً فاعلاً في تاريخ الممالك القديمة وأروقة الحكم كوسيط بين الإله والحاكم، ووجوداً فاعلاً لكنه مستتر أحياناً خلف الحاكم في

أروقـة السـلطان في (الممالـك) اللاحقـة. وأود أن ألفـت إلى أن استخدام هذا الرمز بصيغة المخاطب الغائب كومضات خلفية وراء السرد في عدة مواضع، ليس انخراطاً في السجال حول الأقدمية التاريخية للنصوص الحكمية للعهد القديم أو غيرها من النصوص، إنما للتدليل على أن حكمة الأقدمين وكذلك تخريفاتهم وتهويماتهم وكهوفهم ما زالت حية في قاع تفكيرنا الواعي أو في لاوعينا إلى هذا الحد أو ذاك، وتشغل حيزاً من فراغ الذاكرة وفراغ بيوتنا أكبر من الحيّز الذي تشغله هياكلهم من فراغ الوجود، سواء في إيماناتنا الغامضة أو في المخزون الثقافي والجمالي المتحدر من قصص الأقدمين وأساطيرهم وتشريعاتهم. ولا تزال الحال كذلك إلى اليوم في بلادنا إذ تمتد السلطة الدينية لتمسك بزمام السلطة المدنية أو العكس فلا فرق بين أن يقول جيمس الأول ملك إنكلترا (لما كان من الكفر أن يعترض الناس على قدرة الله فإن من الوقاحة والاحتقار الكبير أن يعترض أحد الرعايا على ما يستطيع الملك فعله) أو يقول لويس الرابع عشر، ملك فرنسا، " أنا الدولة " وبين أن يصدر أي حاكم دولة القوانين التي تقدس ذاته ويصير الكفر بالله أهون من الكفر به لأن ذاك يُغتفر بالتوبة أما الكفر بالحاكم فلا

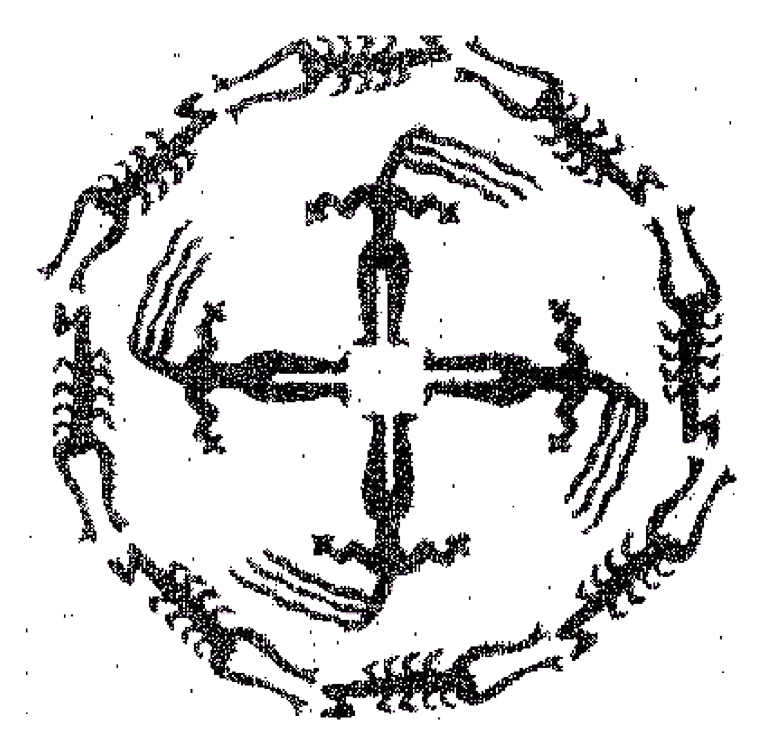
غفران له. كما أن الكفر بالله أثمه مقصور على شخص المخالف فقط أما الكفر بالحاكم فيمتد عقابه إلى الآباء والأبناء وذوي الأرحام طولاً وعرضاً. (إنه الطغيان الذي يؤله نفسه والاستخذاء والهوان الذي يؤله غيره).

(آيا) أو **(إيا)**: إله المعرفة في بلاد الرافدين القديمة، وهو في الوقت نفسه إله عالم المياه كلها، هذا العالم الذي يعد حسب معتقداتهم أصل جميع المعارف. ويرد في أشعار "إيرا" إله الطاعون أو الإله المدمر في معرض تهديده بابل، ما معناه (أين هم حكماء المياه السبعة، الأسماك النقية التي كانت كأبيها"آيا" مفعمة بفهم عظيم)

(كهف الكنوز) هو الكهف الذي سكنه آدم وحواء عند حدود الجنة بعدما أخرجهما الرب منها بسبب الخطيئة، والذي يعتبر حسب أسفار جنة عدن المنسية وروايات (أبيجرافا وأبيكريفا) العهد القديم التي اعترفت الكنيسة الكاثوليكية بها عام (1946م) وجعلتها كالأسفار المقدسة رغم وقوف أتباع العقيدة اليهودية في أول القرن الثاني موقفاً عدائياً منها. - ومن المفيد التدقيق في تلك الأسفار بعد اكتشافات مكتبة (نجع حمادي الغنوصية ولفائف البحر الميت

وجماعة قمران) - يعتبر كهف الكنوز حسب أساطير الخلق مهد الوجود البشري على الأرض، وأول مهبط ((لآدم وحواء)) عليها، وفيه عرفا الظلام وتبدلت صفات جسديهما لتناسب الحياة الأرضية. وفيه تلقيا عهد الرب بأن يعيدهما إلى الجنة مع نسلهما الصالح بعد انقضاء الخمسة أيام ونصف = (5500عام) وإليه أرسل ملائكته الثلاثة يحملون هداياه لهما من الجنة ليطمئن قلبيهما، ووضعوها على شكل مثلث في أركان الكهف، عصي الذهب السبعين من جهة الشرق لتضيء لهما عتمة الأيام، والبخور زنة اثني عشر رطلاً من الجهة الجنوبية ليتنسما ريح الجنة، والمرّ زنة ثلاثة أرطال من جهة الغرب، لتعينهما على تحمل مرارة الأيام. أما الباب الشمالي فكان مفتوحاً.

وفي الكهف ذاته أكلا أول طعام لهما وكان من تين الجنة الذي اختبأ آدم بين أوراقه من وجه الرب، خجلاً من عريّه. ومن ورق ذاك التين خاطا أول ستر لعورتيهما. وربما في الكهف ذاته أيضاً عرفا معنى الحب أول مرة، وعرفا معنى الفرح ومعنى الحزن، وخاطا جلود القرابين المدبوغة بمسحوق جذور السمّاق لضرورة أكثر من ضرورة الستر هذه المرة.



(رقصة آكيتو- مندالا وسواستيكا الراقصات الأربع)

النساء(الإلهات) الأربع العاريات يؤدين طقس استنزال المطر (الاستسقاء) على شكل رقصة دائرية ذات طابع سحري، حيث تنشر كل واحدة منهن شعرها إلى جهة من الجهات الأربع لتحريك الهواء. وقد سمي هذا الطقس بالسومرية (آكيتي) أي عيد الربيع وعيد رأس السنة الموافق لموسم الخصب.

الفصل الأول

المثلث المتوازي الأحلام

أرخى الليل رطوبته الثقيلة على أرواح الكائنات المرئية في أرض البداءة، وأتاح للأرواح اللامرئية خفة التسلل لغزو الأحلام. ونامت ريح خريف باردة الأوصال، في فراش رمادي داكن، نوماً متقطع الأنفاس. وتعب الرمل الجفول من ملاحقة حلمه الغامض على أشرعة الريح، واستراح في حضن أمه الدافئ.

وحدها القلوب الشقية ظلت ساهرة، تُحكم التوازن القلق لعلة الخلق في معادلة الحياة والموت، وتناغم أمثالها المحترقة في جوف الأجرام السابحة في خلاء الكون، في استنزاف الوجع الأخير من حمى تَشَكُلها. وتدفع الزمن أنفاساً متلاحقة تدرأ الاحتمال المكنون في كثافة ماهيّتها الأولى، من اللعب بمسافة الحنين الفاصل بين أشواقها منذ النبض الأول لفراق سديميتها.

ثمة حنين خفي يشد قلب الصحراء إلى روح السديم الأول، مهما نزفت من أحشائها الهجرات، ودارت الأرض حول نفسها، أو حول غيرها وتعاقبت الفصول.

فإذا عانق النهار حمى تلهفها بصمت، هشم دوار السراب مرايا الحدقة. وإذا رقصت في أفلاجها النشوة، يبذر الرمل أشواقه القديمة على مناقير الريح، ويحصد الغايات من طرق العيون، ويكوم التيه على بيادر الأحلام.

وإذا حل الليل، تغتسل الألوان من تعب فرادتها، فترمد عين الحقيقة بالعدوى، أو بالوراثة، ويسرق الظل جميع الصفات ويختفي، أو يصير إلهاً يسكن في الوحشة والاشتباه، ويلبس القمر الخجول عباءة المعنى.

لا يقاس جذع الوجود في الصحراء بطول الظل، فالنور هناك مخاتل، وللظل كما للماء، قيمة مضافة، والزوايا تتبرأ من حقيقتها، كأوتار المسافة ومنصفات شقاء الأضلاع.

وحده الرمل يطابق حقيقته، ويذر كل الذكريات العابرة على طريق الخلاص، في مهب الريح.

مسحت نسمة صبح غبشاء، جلدها الضيق بأصابع الشمس الندية، فأجفلت، وأجفلت آكيتيا من وقع النبض المتسارع لقلوب الأحداث الهاربة من ساحة الحلم، ومن حفيف أرواح الأوراق الذاوية، بهواء تشرين الملطخ بالأصفر، وعبث أظافره الحولاء بشعرها الناعم، وبكثيب الأوراق التي سحبت الصحو المترسب في عينيها للغوص في اللون الغامق من عمق الأحلام.

أفاقت على صوت أبيها المتمادي في غسل العيون الكسولة من رمد الليل، يعبر تخاريم البياض المشبك بالغموض بين الرؤية والرؤيا، ويلهب برطوبة أنفاسه، مارج أجنحة الخلق المغشى بضباب الوجود، يحثه للسفر في مقتبل الصبح، من حيرة الحلم المسكون بأطياف الوجوه المزغولة بدهن الألوان المشرب بغياب التفاصيل، وملابسات الألفة.

سحبت رأسها المتثاقل من رائحة السم المتفشي في ماء الحبر، عن كومة أوراق عبثت بها التشارين، وراحت تلملم مفاصل جسدها، وتلملم صفحاتها من غير ترتيب، فتبلبل الأشواق المحنطة في ذاكرة الورق، كما بلبلت يد الرب ألسنة الخلق في حضن بابل.

حزمت رزمة الأوراق ببساطها المهترئ الحواشي، وعقدت صرته وضغطت بها على صدرها النافر من اللهفة، تعتصر المتبقي من الحنين في وجع الذكريات المحنطة في صدور الصفحات، وتعتصر الوجع المتسري في أحشائها المنقبضة على نَفَس الانتظار.

أي سر وضع الرب في الأنثى؟ وأي شغف بالانتظار! وأي شعور يتوهج في صدرها إذا تسربت إليه ذكرى؟ وأي سر في تلك اللعنة المحببة يا "أحيقار"؟! يا سيد الحكمة وعالم الأسرار. فأي رجل يعرف أمزجة النساء، وكيف يمتزج الوضوح بكحل العين المغلف بالأسرار، أي سر يا هادي الملوك، يا ابن "آيا" الإله، يا موئل الأسرار والأسفار؟

ستون امرأة يا سيد الحكمة والحلم القتيل، لم يتغلغل في جسد أي منهن الوجع الطيب! هل تعرف معنى الوجع الطيب يا "أحيقار"؟

ستون امرأة لم تنذر أي منهن خميرة الحياة المكنونة في جسدها قرباناً على مذبح الرب، فيوثق عهده معك، ويصير دمه صكاً لملكية الأرض..! من حمل بلواك يا صاحب الحكمة المعذب، يا أيوب الصابر على محنة الاختبار؟

أكملت آكيتيا جمع أشيائها المفروشة على أرض الحاشية الجنوبية من الفسحة المفضية إلى فناء الدار، وفناء كل الملامح من جسد الأماكن المغلفة برائحة الغربة في وطن لم يعد وطناً، وسرقت أفراحها أحلام الخلاص المنداحة على دروب الهجرة، ولو صوب الرمل الممتد في خاصرة الكون حتى حدود الله.

منذ ارتمت على صدره كورقة ذاوية، تودعه قبل أن يغادر في رحلته تلك، كأنها تودع الحياة، ولم تأبه لعيون المراقبين ولا لهمسهم الملغز أو المستنكر، آلت آكيتيا على نفسها ألا تنام إلا مثله، في العراء، وأن تحيا بين أفكاره المتلبسة بجلد الورق. والتي تقصر حروف لغاتها الثلاث عن إكمال المعنى - إلا إذا سكنت فيها روحك الأنثى - كما كان يقول لها وهي تطوق عنقه بزنديها الناعمين، شابكة أصابعها النحيلة أمام وجهه، وتاركة للإبهامين حرية العبث الجميل بشفتيه المتلهفتين لعناق يختصر الكلام. وتهمس في أذنه همس الواثق من أمانته على سر شريكه المكشوف: يا لشقاء الذكورة المعذبة! أتريد أن تقنعني بأن كل هذه الأرواح التي تسكن خيال كلماتك الرحب، هي روح آكيتيا المتخفية في الجلد الظاهر للمعنى. أما زلت كجدك الأول وربك، تلبس أرواح النساء علة

شغفك "بالإثم" المحبب؟! ألم ترهقك الوحدة يا آدم؟ ويختمر التوق في فراغات روحك البيضاء وأنت تجدل أشباه الصفات من ثمالة الكون العتيق وتحلها في الأسماء؟

ألم تكفك لعنة ثلاث دول حتى الآن يا آدم المنسي، لتتعلم لغة الصمت؟ أو تغير بعض الأسماء لتطابق حقيقتها، أو لتخالف حقيقتها، وتصحو من سكر المجاز المقطر من روح الأسماء وثمالة الأشياء.

ثم تأرجحه على كرسيه وتسند ظهره على صدرها الوثير، ويقهقهان في ضحك يكمل المعنى.

ألفت آكيتيا أباها عائداً نحو صحن البيت الطيني الذي جبل ترابه بالقش والماء العكر، وأسى العمر، وتولّت شموس السنين تجفيف عوديهما معاً، فاستحالا رُقماً تحمل تاريخاً عزَّ على خطل النواميس المخطوفة من شنف الوهم، أن تسمع صوت حقيقته، وعزَّ على رواد التاريخ أن يتلعثم أحد بقراءته فينتقص من كمال وصفه، ويثير الشبهة على أثير الكامل في التاريخ.

حثّت آكيتيا أوصالها المتراخية لملاقاة العجوز، لكنها لم تستجب. ضغطت بيدها اليسرى على وهم التمزق في أحشائها، ورمت صرّة

الأوراق على الرف الطيني المساير لعتبة الباب العلوية، مكملاً هيبة الحائط، تركته يد الصانع مخزناً للأشياء المترفعة عن الموت اليومي في بلاء التجربة، وملاذاً وهمياً للذكريات، على التخوم الفاصلة بين التذكر والنسيان المقصود. ثم اتكأت على الجذع المتجعد لشجرة عجفاء تخالس ظلها أمام الباب، كأنها هرمت قبل أن تكبر، وعرى خريف التشارين قامتها بعد حرب استنزاف على الورق. وراحت تراقب شبحه المحدودب يسحب ظله بكسل يتأرجح بين التردد وملل الانتظار، بعاطفة وزعها الألم المشتعل بداخلها على الوجوه الثلاثة لأحبة تشظت ملامحهم على الوجه المقعر لمرايا الفراغ، وامتنعت تفاصيل الصور المكنونة في ذاكرة الأخيلة القديمة، من الانحلال في شاهد حقائقها الرطب، والتطابق مع مآلها القائم في الزمان.

حاولت في تلك اللحظة القصيرة أن تستحث تفاصيل وجهه للنبوغ من ذاكرة الأمس الرخوة كقبض الرمل، لتطابق حقيقتها الجديدة، دون جدوى. لكأن التفاصيل تهجر من كل الوجوه العابرة لزيف اشتهاء الحواس، والسابحة في ماء النظر بهالات كاملة الحضور، وتسكن في تلك البعيدة عن رجع النداء ومرمى النظر.

عبر العجوز العائد من طقس مرانه الصباحي مكسوراً، كسبية حرب، خط الوصول المرسوم بعينيها المنتظرتين، قبل أن تبادره بتحية الصباح، واقترب من وجهها المجاهد بابتسامة تخفي ملامح الارتباك في عينيها، ولا تتنكر لإخلاص المحبة.

صباح الخير أيتها الشقية: قالها ممازحاً، وهو يمسح بيده على شعرها الناعم، ثم طبع على جبينها قبلة ومضى، تاركاً لعينيها الخجلتين حرية الزوغان الكيفي عن مواجهة عينيه.

ثم أردف دون التفاتٍ كأنه يعرف سرّها: عشية تشرين هواها منعش يا ابنتي، لكن ليله الخريفي في هذه الأرض قاتل كنصل في الأحشاء. وكوحشة هذه الوحدة في رمل هذا الخلاء المقفر حتى من وجه الله.

أنهى عبارته وأنهى مشق لفافة تبغه بيديه المرتجفتين، ودسها بين إصبعيه المصفرين من صبغ التبغ، وصبغ خريف العمر. ثم أسند زنديه النحيلين على ركبتيه كأنه يحن لوضعية جلوس أدمنها، وتعودته، على اختلاف الأسباب واختلاف جغرافيا المعتقل. شاخصاً نحو أفق يزاحم الأفق للتمطي على وجه قادمٍ من غير

انتظار، وصدر يوم ينسخ سابقه الثقيل، ويشيب مثله من غير تفاصيل، ولا عراك مع السهام الدقيقة لدلالات الزمن، في جنين مدن تتكور في رحم زمن مدور.

أراك لم تعطِ للنور جسداً شفافاً من زفر رئتيك الأزرق حتى الآن، وتكمل احتراق قلب الشمس؟! ردت آكيتيا وهي تعضُّ على الوجع، وتنقل ساحة الجدال الودود من شرفة نومها إلى شرفة صحوته: أتنقصك النار؟ أم أن ربك قد أثقل عليك في صلاتك لقبول التوبة، فجف لعابك .. وتنتظر الشاي؟

قالت كلماتها دون أن تمعن النظر في صورته الجديدة، كأنها تخاطب صورة وجهه المخبوءة في مرايا عينيها من زمن طفولتها، وزمن اختلاط حضوره بالغياب.

ضحك الرجل بوقار هادئ، وقال بلهجة تسحب الكلمات من أعناقها إلى تخوم الجدية: شاي ساخن، أجل، أفضل الموجود، لكلينا على ما أظن، ووجهك المرح يا آكيتيا، لكن من الأفضل أن ترتدي ثياباً دافئة، فالأرض ما زالت تحمل رطوبة الليل، وقلب الشمس ما زال حيّاً مثلكِ، لم يعلن احتراقه الكامل على الملأ.

.. ومثلها، ردد في سره، وغص الكلام في حلقه وغص الدمع في عينيه الشاخصتين نحو طيفها السابح في غبش الشمس، فوق مثواها الذي يحوله في كل صباح إلى معبد، يحاكي سائر المعابد برهبة الصمت وبرودة الجواب، ولا ينفرد إلا في بعض طقوس التعبد.

ها .. ها .. رنمت آكيتيا من داخل البيت وهي تنغم إيقاعا بضرب كوبي الشاي المعدنيين أحدهما بالآخر، ناسية حتى الألم: خطوة واحدة يا رجل، بين الصلاة والغزل!!

أي كاهن صحراوي يترك القمر الفضي، ويتغزل بوجه الشمس؟!
هل فاض قلبك بالإيمان أيها المتعبد؟ أم مللته وصبأت؟

وضعت آكيتيا الكوبين وإبريق الشاي المسود الأرضية من لهب الاحتراق الواهن كتآكل العمر في الانتظار، واتكأتْ على كتف أبيها بمرح متعابث، تستنطق سره بهمس: هل صبأت؟

جربت كل الأشكال يا ابنتي ولم أتب: نفث العجوز كلماته مغلفة بسحابة دخان أزرق في وجه الشمس وهو يمرر يده على أخاديد وجهه المتغضن، ويستحث تفاصيله القديمة للنبوغ من ذاكرة الأيام.

في البدء كنت متشدداً، أحب الله قدر ما أخافه، وأسترضيه قدر ما أحتاج إليه، آمنت بلا شك ثم نكصت، أو كما قلتِ أجمل، صبأت، ثم ألحدت من دون عقل، وصبأت أيضاً، ثم صرت متنوراً حسب العرف السائد، موفقاً بين مقتضى السماء ومقتضى الأرض، وفشلت أيضاً. كأني أمة في رجل، وكأن جسدي وطني.

والآن ... يا آكيتيا، صرت أشك بحقيقة كل شيء، لا بحقيقة وجوده وحده، بل حتى بحقيقة وجود أرض الكورد وأرض العرب، وحقيقة وجودي، مع أني هنا أكلمك وأسمع صوتك وصوتي، ولم أعد أبالي، حتى وإن تعكر خاطر (ديكارت).

قالت آكيتيا في استغراب ودهشة، لا يخفيان التعاطف والحنان: وبأي دعاء تسبّح مع كل فجر فوق قبرها إذن، وتحرم نفسك من لذة النوم؟!

رد العجوز مبتسماً: أؤنس وحدتها بوحدتي، وأؤنس وحشتي بوجه الرب. أم ماذا تريدينني أن أقول؟ إنه العشق، أجل، لعله العشق، لكن عشق الشباب يختلف عن عشق الكهولة، فأنا جربت الاثنين. أما أنتِ فما زلتِ في أول الطريق، تبعثرين صهوات الليل

بسُرج العيون فلا يطبق على طيف المحبوب، ولا يثقل عتبات الانتظار المفضي إلى كمال الحلم. أما أنا، فأشد نواصيه من ذؤابتها الأولى لينام في دغوشة البصيرة، وترحل عن كواهله قدامى الصفات. وأناور عسس الأرواح على قبض غنيمتها، قبل أن يتبرأ من حواشيه، ويطلق الصبح جنون فرحته في عثعثة المتبقي من شغف جسدي بغصة ماء الحياة.

هل تعرف العشق يا "أحيقار" السلاطين الجدد، وسُرج العيون؟ هل تعرف السرّاج[1] وماء العيون، أو ماء السماء؟

زعموا أن السرّاج كان سراجاً لعبد الناصر ذات مساء وأحرق ذيول الوحدة. وابن ماء السماء [2] كان يحمل في دمه برءاً من داء الكَلَب المنتشر وباءً بين خيام القوم، ولبعض آخر من تلك الأدواء، مثل " نقص الهوية". هل كان عندك نقص في الهوية يا "أحيقار" فأحلت

---

(1) - عبد الحميد السرّاج رئيس جهاز الإستخبارت في الإقليم الشمالي في دولة الوحدة أو ما كان يسمى المكتب الثاني. و"مآثر" الرجل ومكتبه معروفة في القمع وكم الأفواه و ... واعتبرت ممارساته من وجهة نظر البعض سبباً من أسباب انهيار الوحدة.

(2)- اعتقد بعض عرب الجاهلية أن دم الملوك والرؤساء يشفي من عضة الكلب، وخير دواء لداء الكَلَب هو أن يقطر للمصاب دم رجل من بني ماء السماء (ملوك المناذرة) ويسقى منه المصاب بعد مزجه بالماء فيشفى.

إلى دمه هويتك الموبوءة ؟ ورضيت به دواء لدائك المنهمر من وحي السماء، على مقتضى الملة وصفاء الأعراق.

هل رفعت إرادتك فوق مشيئة التكوين يا موسى الطور، لتندمج الأوطان الموبوءة في موت واحد، فتبعثها حية بلمسة يدك "النبيّة"؟ وهل صرت تعرف أن للموت الواحد أجزاء ودرجات وبرزخ انتظار يعبر منه الأموات مراتب ودرجات؟

أين أنت الآن يا "ذا النون الثاني" ؟ في خصية أي حوت أمضيت بقية سبيك منذ بعثت لتحرق بلدين ونصف الثالث؟ وعلى أي صوم سيحذو حذوك المستوطنون في رحم مدينتك المسموم بزرنيخ الدروع المستنفد في تحريف التاريخ والنازف من جرح الاغتصاب المتكرر؟! وحول أي صنم سيأتلف عراة القبائل لتبارك حجهم، وتخلع عليهم أردية النيافة والسلطان. من أي وحي نقلت رسالتك "المكرمة"، ومن أي بلاغ؟

كيف أضفت العين لفلق الصبح ولم يضطرب النظم المعجز للآيات؟! وكيف أبدلت الشين النابية بثاء اللثغ في داء اللثة، أو داء الثلة، وأسكنت العسكر تحت الطربوش الحافظ لحرارة رأسك صلة

للـرحم، ولم تعـترض الآيـات! أتـراه ربـك يوافقـك بمـا أحببـت، وليكوِ المهجرون نزيف شرايين القدس بحريق بغداد.

قالت آكيتيا وغصة العجوز تطفئ روح المرح في لجلجة السؤال: أكنت تحبّها إلى هذا الحد يا أبتي؟ أم تشعر بالذنب لأنك لم تكن إلى جانبها عندما كانت بحاجة إليك، ولم تودّعها قبل رحيلها الأخير على مفترق الجهات؟

أحببتها نعم، لكني ككل المحبين لم أكن أعرف أني أحبّها حقيقة إلا بعدما غادرت. وكل ما أقدر على فعله الآن، أن أعتذر لها: عن جهلي بحقيقة حبّها أولاً، وبحقيقة الحبِّ، وأعتذر لها عن كل الذين أخطأت بحقهم، مثلما أخطأت بحقها، وعن كل الذين أخطؤوا بحقنا، لأني كنت مثلهم.

لا يا أبي .. لست مثلهم.. انتفضت آكيتيا مقاطعة كلامه.

بلى يا ابنتي: كنت أفكر مثلهم، ولو أتيح لي أن أفعل مثلما فعلوا آنذاك، ربما كنت فعلت مثلهم أو أكثر. لا يكفي أن يشعر المهزوم بالقهر حتى يبرأ من أخطائه، ولن يبرأ من أخطائه ما دام حلم الخلاص في رأسه رغبة شوهاء، تمتح من فراغ التبادل بين دور

الجلاد ودور الضحية. فلم يقل أحد منا بعد، لو أعطيت السلطة في بلدي لزنرت حدوده بالياسمين، وأحببت خصومي ..، ونزعت الأسوار عن كتف الحدائق وقصر الحاكم.

ما زلنا يا آكيتيا ندور في الفراغ. والعدل حلم يدغدغ أرواحنا التعبة، ويشد أحزاننا إلى دوامة الانتظار. أجل ما زلنا ندور في الفراغ، والعدالة عجوز خرقاء، تتكئ على وتر القوس وكتف البندقية، وتجس عتمة دربها بعصا السلطان المنحولة من مآرب أخرى، فتعثر بأطراف ثوبها الخليع عند أول مفترق للغاية أو منزلق للنية. لا أظنك تجهلين ما أقول يا آكيتيا، فأنت طالبة الحقوق التي استشهد العدل في ماء عينيها قبل أن تحوز الشهادة.

وماذا تفعلين في هذا العراء المتبرئ من هويته؟ تدافعين عن حقك في الرمل المنثور من هباء عمرك على محفة الريح؟! وترافعين أمام ربك عن حقك في الموت المبكر، ورأيك في لاجدوى هذه الحياة، أم تبتهلين العون على مصاهرة الأيام الهاربة من عمرك الحزين؟

وماذا يفعل ذاك الفتى الطيب في ذاك المدى المفتوح للموت؟ يصك فكيه على ذرات الرمل في فمه المعفر بالغبار ليشعر بألم الكون؟

أم يملأ عينيه بسراب الرؤية فترتحل الحدود لتتسع الهوية، ويسقط المعنى من جواز السفر؟

هل تعرفين ما الذي يبقيني في هذه الأرض يا آكيتيا أقاوم رغبة العودة، أو رغبة الانتحار؟

جهدت للدفاع عن حقي في السعادة في وطني، وحقي في الدفاع عن وطني، فلم أصل، وربما كان الحلم كبيراً، وبقيت هنا لأدافع عن حقي في الشعور بالألم، حتى يظل لضمير الأنا معنى.

لكن يا أبي .. أنا لم أحمّلك يوماً مسؤولية حرماني من إكمال تعليمي، وأعرف أنك بذلت ما في وسعك من أجلي.

أعرف ذلك يا ابنتي تماماً، ومع ذلك أنا حزين لأجلك، ولم أقصد أن أرشّ الملح على جرح لم يندمل، وأفتح باباً آخر لشجون تمتد امتداد هذه الفلاة، في نفس كلها أبواب.

لكني .. وغط الرجل في صمت يخالس مسامعها، ويكمل حديث الذات للذات: لا أدري ما الذي يدفع عقل المرء للهرب من سعة الواقع إلى ضيق المثال. ولا أدري ما الذي يجعلك تشقّين زحام الأمثلة في حزن ذاكرتي العتيق، لتكوني في أول الخاطر. لعل

السبب يكمن في علة الخرف المبكر لدى كل الملسوعين من عقوق السياسة، ابتسم بتهكم يراوغ فواصل الممانعة بين السخرية والجد: ألم يصب صاحب فلسفة المُثل اليوناني من قبل بذلك؟ أو لعله قدر كل كوردي على هذه الأرض أن يعيش نصف عمره تائهاً، والنصف الآخر في منادمة الأحلام العاقر والندم.

ولكني .. ما قصدته يا ابنتي في كلامي عن العدالة وكنت أنت المثال النافر في ساحة الشعور الملتبس بالغبن، أو بالعاطفة: أنه ليس بمقدورك الدفاع عن وجودك في هذه الحياة أمام تلك المحاكم الخرقاء إلا إذا كان لديك شهادة وجود تخولك ذلك!!

ولا أدري ماذا يعني هذا !! فهل يكتمل وجودك إذا أسبغ الحاكم عليك شهادة ميلاد؟

ويَفنى وجودك المكتمل الحضور إن أنكر شهادته؟ وتتزحلق عن اسمك الصفات ما إن يسقط عنكِ صك الجنسية؟

هل يفنى الله المطلق الوجود حين نجرده من الصفات أم يكتمل؟ وماذا سيصبح حينما نحدّه بجميع الصفات غير صفة الحاكم. هل يؤمن المرء إذا شهد بالشهادتين أم يسلم كالأعراب من دون أن

يدخل الإيمان إلى قلبه ؟ وماذا يصير إذا أنكر شهادته؟ مؤمناً ، أم كافراً ، أم منبوذاً على سنّة الهنود؟! أم غير موجود؟

وهل يسقط حقه في الزواج والتناسل والشهادة؟

ربما يصبح مثلك ، كوردياً سقطت عنه الجنسية. وطريداً لحرس الحضارات وفرسان التوحيد ، حتى يتطهر مما بقي حياً فيه من حلم بأرض الكورد وإرث المجوس.

ثم راح الرجل يكمل حديثه الصامت : أي شهادة تطلبين يا آكيتيا ، ومن ذا الذي سيصدق تلك الشهادة. أنت يا آكيتيا فتاة جميلة وناضجة في سن الزواج ، وشبابك يحترق في هذا الفراغ المجرد من الأسماء ، تحملين حلمك وقدرك وتبحثين عن هوية ، وغداً ربما تتزوجين ، ولا أدري على أي شريعة فأنا قد مللت الشرائع ، وقد أكون شاهدك الوحيد إذا كنت حياً ، مع أنك تستطيعين الزواج والإنجاب من دون شهادتي أو شهادة غيري ، وربما يكثر الله نسلك ويخص أحدهم بعهده ، ويورثه أرضاً غير هذه الأرض.

ومع ذلك يا آكيتيا فأنت الآن لست أنت! ولستِ موجودة! وقامتك الجميلة وبحة صوتك الحنون وقلبك النابض بالحب ، وكل صفاتك لا تكفي لإثبات وجودك. تحتاجين إلى شهادة ممهورة بخاتم السلطان ،

أو من يحمل خاتمه، لتثبتي وجودك. وكل ما عدا ذلك يعجز عن إثبات شخصيتك يا آكيتيا، مثلما عجزت من قبل ثلاثة أحزاب قومية أو فوق قومية وشريعتان سماويتان، وسجل درجاتك النظيف، عن منحك شهادة التخرج من كليّة الحقوق، أو منحك شهادة ميلاد رسمية، ولو من أجل أن تبرر الذبح على الهوية.

لو كنت محظية، فعندها يمكنك أن توزعي الشهادات على المارة في الطريق، وأن تخرب لأجلك سدوم، أو تحرق روما .. أو ينزل لأجلك وحي ..

.. لكن لا تحزني يا ابنتي، لم تكن الحياة يوماً أكثر عدلاً على الأرض، ولا أظنها كذلك في السماء. فحتى الله العادل كان حكمه قاسياً على صاحب الحظوة عنده يوم نازعه على كريم الصفات. وإلا فأي خطيئة تلك التي تنتقل بالوراثة، كجرثومة الدم؟

وأي عبرة في غمر الأرض بدماء الآلهة؟ وأن يُحكم الإنسان بالموت المؤجل، والنفي الذي لا رجعة منه، والشقاء في تحصيل القوت، ورفض الإغواء، واجترار الدعاء لقبول التوبة؟

وأي إله ذاك الذي يؤثّم الحب ويشرعن الحرب، إلا إذا كان في يوم راحته؟!

تلجلج السؤال على لسان آكيتيا، لكن نبرة العجوز سدت فيض كلماتها. انتظري، لا تتسرعي في الحكم يا ابنتي، لست في وارد الإلحاد. فالإلحاد في هذا المقام حرب جديدة.

عادل هو الرب وأي عادل، حين أهدى إلى الإنسان الموت كمالاً للحب حتى مراميه الأخيرة، وغسل أفلاج الأرض من جدب ملوحتها، طوفاناً يعمد الأرواح بلهفة الشوق، ويغسل الأجساد بماء الخصوبة. وقال للإنسان: لك الأرض وما عليها، فأكمل خطيئتك الجميلة. مت حباً ولا تمت حسداً، فإنك إليَّ تعود، وليكن الحب أول اشتهاء في نفسك لبني جنسك، يتدفق لغةً، وليكن الموت آخر اشتهاء في نفسك، لقهر الخوف من اكتمال الخطيئة. كلُّ ما في الكون جميل أيها الإنسان، والموت أعظم هيبة، فلا تطلب الخلود إلا في الجمال .. مت حباً ولا تمت حرباً، فلا فضيلة في أن تموت قاتلاً أو قتيلاً.

لكن، أي عدل يطلبه البشر يا آكيتيا ؟! أليس أن يصبح كل منهم حاكماً؟ وهل سيصبح كل منهم حاكماً؟؟

أمس كتبنا التاريخ بأسماء الملوك، ولغة السبي، والهجرة،

والغزوات والحروب والمدن القتيلة، ونشرنا أحداثه على هشيم الذاكرة صوراً للفراغ. وأي فراغ ذاك الذي لا يمتلئ إلا بالفراغ؟!

أجهشت آكيتيا بالبكاء، وطوقت عنق أبيها بكلتا يديها، بصمت ولم تجب.

نهض العجوز يحل المتبقي من ستر الشمس بماء عينيه، وسار بوطء خفيف على مسام الأرض حتى آخر الفسحة الشرقية من فناء الدار. حمل دلوه وصب المتبقي من الماء العكر على نقيع السعف، ثم غمس يديه بماء الحوض وراح يرجهما كأنه يمحو ملامح وجهه عن مرايا الماء، أو يطهرهما من إثم قديم. رفع رزمة من السعف المسرّد، نزع منها ما علق من عذوق العناقيد، وعاد يعارك بكفيه النحيلتين عصب المعاش.

قالت آكيتيا ودموعها تسابق الكلمات: دع سلالك يا أبي، أنا أكملها، وتفرغ لعمل آخر.

قال آدم العجوز: وماذا أعمل؟ وبانت على وجهه دوائر السنين كجذع شجرة مقطوع، وتلون شعره بالمشيب المحايث لقلة الحيلة، أو قلة الجدوى.

قالت برجاء حار: أكمل كتابك يا أبي. لماذا لا تكتب؟

هز العجوز رأسه عدة مرات كمن يرتل صلاة، ثم قال: ما كنت أقرؤه لم يعد زاداً لفكري، وما صرت أعرفه ضيّق العبارة. ما أسرع أن يتغير الزمان، وما أبطأ أن يتغير البشر ..!

قالت لي ذات يوم وأنا أتلعثم بدم القصيدة: ستقدمنا موائد للضيوف.

يومها قلت: في العهد القديم، كان للرب أشعار جميلة.

قالت: ستضحي بنا قبل أن تخرب بابل كما خربت سدوم. صفات الله في قصائدكم تأكل ملامح وجهه. ووجهه كان أجمل قبل أن يغيب في السماء.

قلت: الكلمة راحلة الفكرة، وكلما اشتد الجدب تأكل الراحلة من زاد السفر.

قالت: سيضيق بنا المكان وتنقطع السبل، سنعود للبحث عن ملاذ في الكهوف القديمة.

قلت: بل سيتسع. والآن فقط أدركت أن الزيادة في ضيق المكان أو في اتساعه أمر واحد.

ثم ضحك العجوز ضحكة لا تنبئ عن مرح، وقال: عندما سحبنا "ملائكة الرب الحاكم" عن أكتافنا، أو عن أرجلنا، إلى الشاحنة المركونة أمام الباب، قلت: أنا غريب عن أهل المدينة. ولكن أحداً لم يسمعني.

قالت: سيأخذنا ضيوفك إلى كهف النجاة.

قلت: مجرد التباس عند من ينفذ الأوامر، لست ابن أخي يعقوب! وعندما مسحتْ سحابة الكبريت الأبيض صور الحياة المتكثفة على الشبابيك في المرة الثانية، قلت لها لا تنظري خلفك، "ستصبحين عموداً من الملح". وعندها فقط عرفت ما بيني وبينه من قرابة.

وكان مساءٌ وكان صباح يوم أول.



هات سلالك يا أبي، أنا أكملها، قالت آكيتيا وهي تغص بحشرجة ألم لم تعد تعرف من أين يشق تخاريم مواجعه، من داخلها أم من داخله: أكمل كتابك يا أبي، أو اخرج للترويح عن نفسك قليلاً. اذهب إلى بيت جارنا سمعان إذا أردت، فأنت تحب مجالسته.

رد العجـوز بهـدوءٍ دونمـا التفـات، ومـن دون أن تتوقـف يـداه عـن العمـل: عنـدما أمـوت سـيكون لـديك الوقـت الكـافي مـن الوحـدة لصنع السلال، ولوك حواشي العمر. وربما تكملين كتابي أو يكمله أحـد غـيرك. فأنـا وحـدي لا أفـتح عصـر تـدوين جديـد. والكتـاب الكامل يا آكيتيا ليس للقراءة ولا للبحث. ونحن أقوام شفاهية ومِلل محاربة، لا تقرأ. وإن قرأت لا تقرأ إلا كتبها الكاملة. أو تقرأ اسـم الكاتب ولا تقرأ اسم الكتاب.

اعتدل الرجل في جلسته قليلاً وأسند ظهره إلى حـائط اللـبن، نفـض يديـه مـن مـاء السـعف الرطـب ومـن رطوبـة الـدنيا، ثـم مسـحهما بقمـاش كميـه بوضـع متصـالب، ومشـق لفافـة تبغـه الحـارق وراح يعطي لأنفاسه المخنوقة علة وجود تدركها الحواس.

مسكين يا سمعان، قالها وزفر دخـان تبغـه يلـف الكلمـات بقمصـان فحم جديدة: مسكين يا سمعان، يا أيقونة الرفض الصابر، ويـا زاد الوعاظ المبلل بلعاب الولائم. كنت تظن أن العمود سـيريك مسـاحة أكبر من فجور الأرض فيقـوى صـبرك، وتمـوت حـواس اشـتهائك، فتقترب روحك من روح السماء.

مسكين يا سمعان .. لو كنت تعرف أن حجارة الأرض ستنتفخ لتبتلع عمودك وتصير أديرة، لأنصفت شهواتك الأرضية وكففت عن حلمك.

لو كنت تعرف أن التراتيل ورائحة البخور والشمع المحروق التي مللتها، ستنخر حواسك في أعياد القرابين والأيام المكرمة، لأنصفت حواسك الشريفة وكففت عن صومك، وعن صبرك، وعن حلمك، وعن موتك.

أربعون عاماً يا سمعان، يتربع عقلك على عرش جسدك الآسن كمزرعة الدود ..! يومها كنت تظن أنك وحدك من يفتح تاريخاً للصبر الجميل، ويقتل حواس اشتهائه، ويترفع عن قلقلة الأسئلة.

لو كنت تعرف أن شعوباً بأكملها ستقتل حواس اشتهائها، وتطفئ التوق المشتعل في ضمائرها بالصبر، وتخرج من دورة التاريخ، وتترفع عن الأسئلة على طريق خلاصك الطوباوي، لكففت عن حلمك، وعن موتك، وعن صبرك.

قالت آكيتيا: هات سلالك يا أبي أنا أكملها، ها جارنا سمعان يجلس على سطح بيته يا أبي، لماذا لا تذهب إليه؟

مسكين يا سمعان أنت الآخر، يا جار جنوني المتعب. ما زلت تظن أن السطح يريك أكثر من هذا الفراغ الممتد لأبعد من مدى الرؤية، وأبعد من رؤيا الأحلام. وأن الطريق هناك ينحدر إلى موئل أحلامك نزولاً، ويحفر مجرى جديداً (الجدول العليقة) يسحب الشوق من شرايين دمك رسائل عشق لعينيها الخجلتين، ويغسل ساقيها بماء خصوبتك المحتَقَن كزواج الحيتان.

أمس تنهد سمعان بمرارة وقال: في هذا البلد خير أكثر من خيرات مصر وكنوز الفراعنة، ونحن على حافة الجوع، لكنه يحتاج إلى نبيٍ كيوسف حتى يحفظ ثروته، ويصلحه. فضحكت، لكنني لم أقصد التهكم، أو الشك في صدق مرارته.

قلت: كل منا يحلم أن يصبح فرعوناً، حتى يوسف، لكن الفرعون لا يحلم. ما أن يصير فرعوناً حتى يجافيه الحلم وتقلقل نومه الهواجس.

وأمس قال سمعان، وما يزال مرتجفاً: أنقذني يا جاري من حلم الأمس.

فقلت: كف عن النوم يا جاري. فالنوم أرض الأحلام الخصبة، والليل معزقة الوهم، والحلم شبح الرغبة، وباب الحقيقة السري في كهف النفس.

قال: حلمت في وضح النهار يا جاري، وكان الكون أزرق كمساحة وهم، لكن الليل غطاني بضباب أصفر.

حلمت كأني أنام على سطح بيتي، أو بيت يشبه بيتي، لكن السطح مائل، وأنا أقاوم الانزلاق. حرثت السطح بأظافر يدي وأنا أنزلق حتى حدود الهاوية. تحتي تمتد الأرض سنابل قمح صفراء، لكن سوقها تتثنى كالأفاعي، وسنابلها سمينة، لكنها مرقطة كبيض البط، حبوبها ناضجة وممتلئة كعناقيد ..

قلت: أكمل يا سمعان فأنا مصغ إليك.

قال: حرثت السطح بأظافر يدي، وعند حافة الهاوية فتحت يدي اليسرى، فسقطت منها بيضة ديك! حاولت ألا أنظر إلى الخلف فلم أستطع، صارت البيضة تتدحرج على رؤوس السنابل فتنفجر، وينتشر من قلوبها صدأ أسود. فصرت أرتجف، ولم أستطع أن أغطي وجهي أو أصرخ.

تنهد سمعان طويلاً ثم قال كعادته: نجنا يا رب، من أنفسنا ومن أحلامنا.

قلت: أكمل يا سمعان فأنا أسمعك.

قال: حرثت السطح بأظافر يديّ، وزحفت حتى أعلى المنحدر، فمال السطح أمام وجهي من جديد، واشتد انحداره أكثر، سمعت صرخات متتالية، لكني خفت أن أنظر إلى الخلف. كان الصوت صوت أمي، تدفعني للسقوط إلى الأرض.

قلت: اترك أمك وأباك وتكلم، فأنا أسمعك.

قال: صدأ القمح الأسود كان أسهل، وضباب الليل الأصفر كان أهون، مما رأيت في الجهة الأخرى.

هناك كان الكون أزرق كماء الغمر العاتم، والوجوه أرجوحة للريح، والأجساد شفافة، والظل على ثلاث جهات، وأنا عارٍ كالشجر في الخريف وأتمسك بظلي.

قالت آكيتيا: هات سلالك يا أبي، أنا أكملها، اذهب إلى بيت سمعان، فأنت تحب مجالسته.

قلت: أكمل يا سمعان، يا يوسف المختبئ في ظله فأنا أسمعك، قل ماذا رأيت في الجهة الأخرى.

قال سمعان: رأيت مريم!!

قلت: ما بالها مريم؟ كلنا نراها، فوصف معاناتها كامل .

قال: ليس المجدلية.

قلت: فهمتك، وأنا لم أقصدها، وتلك الأخرى وصف معاناتها كامل.

قال سمعان: .. رأيت مريم .. رأيت مثلثها ... كانت تختبئ في جسد عشتار الشفاف خلف باب المعبد، والباب لا يخفيها.

ورأيت صفورة تحمل حجر النار في يدها، وتحمل في اليد الأخرى قلفة دامية، وإبراهيم يداعب هاجر بلا خجل، فتقتل الغيرة ساراي. ورأيت رفقة تحث يعقوب على سرقة بركة أخيه، بعد أن سرق بكوريته، ويعقوب يساوم الرب على سدوم، وابنة لوط الكبرى تنهب خمور عمورة، والصغرى تجلس في حجر أبيها عارية. وخلف المعبد، رأيت تامار تلوح بعصا يهوذا، وتملأ الأرض زيتوناً يقطر دماً، وتامار الأخرى تستحم في عيون داود الملك وأوريا الحثي يحرس بوابات القصر، وسليمان ينشد أيتها

الجميلة بين النساء، وابنة يفتاح ترثي بتولتها، والمجدلية تداعب ناقوس المعبد.[3]

وبعدها يا سمعان ماذا رأيت؟

رأيت .. رأيت يا جاري وجوهاً كثيرة، لم أعد أميزها. لأن فوطيفار كان يضع سيفه في نحري ويصيح اصمت، أغمض عينيك واصمت، ستضيّع علينا المُلك. وزوجته تمسك بقميص يوسف وتصرخ، هبني ولداً وإلا فإني أموت.

تحشرجت بأنفاسي يا أخي آدم، صحوت مخنوقاً، وماء جسدي يغسلني، لا أدري أهو ماء العرق أو ما يشبهه، قالها سمعان بقليل من المرح، ونحري ما زال يؤلمني، وما زلت أتحسسه بين اللحظة والأخرى بأصابع يدي ثم أنظر إلى أصابعي لأرى أثر الدم، كأني على يقين أن الجرح ما زال ينزف.

---

[3]- ما ورد ذكره من أسماء هي كلها من شخصيات العهد القديم، عدا عشتار ومريم طبعاً، ومن المعروف أن لكل شخصية من هذه الشخصيات قصتها في قصص العهد القديم وأسفاره، وربما لا يزال معظمها يقرأ بصوت خفيض خجلاً أو تستراً.

قلت: كل هذا في حلم واحد يا سمعان؟! وفي ليلة واحدة ؟! إنه أشبه بحلم سبعيني[4] يا رجل.

رد سمعان وهو يتلمس نحره: أقسم يا جاري إنه وضح النهار، ولا شيء يغطيني إلا خيمة سعف، ولا شيء يظللني إلا غيمة. وما تذكرته يعادل ثلث الحلم، أو ربما أكثر، لكنه كان نهاراً أطول من سبعة أيام.

أما زلت تنتظر يوسف يا سمعان حتى يصلحها ..؟ أم استحمت جميلة في عينيك ؟

أما زلت تحلم بالعودة يا سمعان وتخاف أن تزني بجسد مدينتك؟ إلى أي مدينة تحن يا سمعان الموزع على ثالوث المدن، وثالوث التوبة؟

---

(4)- نسبة إلى الترجمة اليونانية للتوراة، المعروفة بالترجمة السبعينية، إذ استقدم بطليموس الثاني فيلادلف ملك مصر (285- 247ق.م) اثنين وسبعين حبراً لترجمة العهد القديم إلى اليونانية، وأنجز الأحبار الترجمة في اثنين وسبعين يوماً كلاً على حدة، وأتت الترجمات كلها متطابقة عند مقارنتها، مما أضفى القدسية على العمل واعُتبر كأنه وحي من الله. وقد اشتملت الترجمة على أسفار وفصول خلا منها النص العبري (كسفر طوبيا وأسفار الميكابيين) وغيرها. وهذه الترجمة هي التي كانت سائدة في زمن المسيح.

أما زلت تتعلق بسياج الجسر وترميها ببذور دوار الشمس لتلتفت نحوك؟

أفق يا سمعان أفق، فقد صار بينك وبين الجولان ثلاث وثلاثون مشنقة وخيبة، أما زلت تحلم بالعودة؟ أتظنها ما زالت هناك تغسل ساقيها بالماء الثلجي في ظل شجر العليق، وتنشفهما بخرق الغيم أو بخرق الشوق المنسولة من شغاف قلبك؟ كم أشورياً قبلك سكن الجولان "بهداية" الترك*، وهجر الجولان بغواية العرب أو اليهود وما زال يرى في كتف الوادي الحجري وروضة العليق الحانية على ساقيها الرطبتين وطناً يا سمعان؟.

هل تعرف يا سمعان متى تصير حجارة البيت، أو حجارة الأرض وروضة العليق وحقل دوار الشمس، وقصص الحب الجميلة وطناً وهوية؟ وهل تعرف متى تصير حجارة البيت أو حجارة الجبل عبئاً على الهوية؟

---

* - إشارة إلى أن كثير من أفراد الأقليات القومية من كورد وأرمن وشركس وآشوريين قد هُجروا قسراً وأُسكنوا في قرى الجولان في العهد العثماني بسبب النزاعات الإثنية.

لو كنت كوردياً يا سمعان، لعرفت ما معنى أن "يُستكرد" الإنسان. وما معنى أن تصير الأرض عبئاً على الهوية حين يسيل النفط من شرايينها ويسيل الماء.

ومتى تكون الجنسية عبئاً على الفرد حينما تكون زيف الهوية، ووجعاً آخر عندما لا يكون للإنسان هوية. كم أحلم باسم بلا معنى يا سمعان، وكم أحلم بوطن بلا جنسية.

قلت: هل تحلم بالعودة يا سمعان من أجل عينيها وتخاف من رغبتك "الدنيئة"، لأن الأرض أثمن من دمع المحبوبة ومن دمها؟ أتخفي رغبتك بكل أهازيج الخلق ورقص المشعوذات ليكتمل الحلم، وتنام بريئاً حتى من ذاتك السمحاء في قفص الهوية؟!

قال سمعان: صدقني يا جاري لا أدري، فعقلي ما زال مشوشاً من حلم الأمس وقلة النوم، وكلما حاولت النوم يعاودني الحلم نفسه.

وكان مساء وكان صباح يوم ثان.



قالت آكتيا: هات سلالك يا أبي، أنا أكملها، ها جارنا سمعان على الطريق يلتفت نحونا، قم تمشَ معه إلى الساحة، فالمشي يعيد الحيوية للقدمين، وينعش الذاكرة.

لوح سمعان بيده تحية الصباح: إنها الثامنة يا جار، ألا تذهب؟ سيفتقدوننا، فتفيض قريحتهم ... أنت تعرف.

رد العجوز بتمهلٍ: دعها تحترق، فلن أذهب. ملّني الورق يا سمعان .. واسمي ملّني، وفاتني زمن الخوف وزمن العشق يا جاري، ومن زمن النبوءة تنازلت عن حلم العودة.

أريد أن أبني وطناً في العراء لا يزاحمني عليه ظل الشجر ويثير فيّ غريزة التملك، وأطرد من عقلي صبوة الحلم، وعن جسدي صفة الوجود، فيأمن الله لإيماني ولعله يستريح من مراقبة فرد من البشر. على كل حال، حتى هم ما عادوا يسألون عن وجودي، فقد أدركوا أخيراً أني قد تنازلت عن حلم العودة. اذهب أنت لإثبات براءتك من (دم الأنبياء) وعد لنشرب الشاي.

لوح سمعان ثانية بيده مودعاً وتابع طريقه نحو مكتب الأمن العام، كي يوقع إلى جانب اسمه على الدفتر السميك، مؤكداً أنه لم يغادر

الغبيرة، مكان إقامته الجديد، كما اعتاد أن يفعل منذ سحبه ضيوف الرب عن كتفيه إلى الشاحنة المركونة أمام الباب، ونقلوه مجاناً هذه المرة من تلال الشمال إلى صحراء الجنوب، فاستقبلته على الرحب والسعة بوجهها الحار وصدرها الواسع. حتى تندمج الأعراق الموبوءة بنقص الهوية في جسد شعب عريق الخصوبة والتاريخ، يستقطر شرعية خصوبته من خصية المُلهَم الواحد.

صباح الخير يا إخواننا في الشقاء: سلّم سمعان على رجال المكتب بوجه بشوش، لم تغير قسوة الحياة ولفح الرياح الحارّة غير لون جلده فقط، ولم يعتره غير بعض الشحوب من الأرق، ورفع يده اليمنى على طولها بكف مفتوح، يعطي للتحية معنىً آخر تدركه الحواس.

أهلاً .. أهلاً .. يا سمعان: رد السمين الجالس على الكرسي الثخين الأرجل وهو يمط صوته كما يمط جسده، تاركاً بين الطاولة المعدنية وكرسيه مسافة تكفي لوضع رجله على الدُرج الحاوي على الأسماء والأهواء. الحمد لله على السلامة يا رجل: نطقها بتهكم أكبر من تهكمه السابق في رد التحية.

أين كنت حتى الآن يا سمعان؟ سأل السمين بجدية أكثر، مع أنها لا تخلو من التهكم.

الساعة لم تتعد الثامنة يا سيد أبو نزار! رد سمعان ممازحاً، لكنه مستهجناً لهجة السؤال.

أعرف أنها الثامنة يا سمعان، أنا لا أسألك أين كنت اليوم. صارت كلمات السمين صريراً على أنفاس الحروف، وصرير كرسيه الثخين القوائم أكمل الجوقة، وهو يطحن الحصى المتشظي من ملاط الأرضية النخرة تحت ثقل جسده يجره خلف الطاولة، حيث انتفخ الرجل على عرشه كطاؤوس.

نجنا يا رب: تمتم سمعان كأنه يترسم وجه العلي في موقع ما، كنت في بيتي! وكل يوم أزور حضرتكم وأعود إلى البيت يا أبا نزار، إذا لم أكن في العمل مع ورشة الخدمات التي تعرفونها.

أمس جلبت سلال آدم العجوز، تحادثنا عن رسوم أرضيتها، تساومنا على سعر السلة، وأنت تكلمت عن تعثر السوق، وعن تعب المعاش، وعن موت رائحة الفاكهة، ومغادرة اللذة من سلال الاشتهاء منذ تغلغلت الريبة في جلد ليالي السمر.

وماذا كنت تفعل في بيتك طوال هذا الوقت يا سمعان ؟

وماذا سيفعل رجل في عزلة يحف جوانبها الرمل من كل الجهات برأيك، غير معاقرة الأحلام.

بدت على وجه السمين ملامح عنف المنتصر على فريسة سهلة، وازداد صرير مخارج حروفه نزقاً: لا تستغفلني يا سمعان .. ثم أضاف شاغل الرأس الثالث لفراغ المكان: لا تكذب يا سمعان. فاهتز وتر المسافة بينهما، واهتز عصب الكرامة في رأس سمعان وانجدل على عصب الحياة .

نحن لم نغادر الموقع منذ سبعة أيام بسببك: كرر ذو الشعر الخشن، وعاد يداعب سبحة خربة بيديه الجافتين، ويوازن مكان الفاصلتين، حتى تعدلا قسمة الخرز المطعّم بالرصاص على ثلاث فرق متساوية تحت عمود الرقبة المنخور بنخرين، يخرجان من معبر واحد. فيمنع عبور الأسماء المعدودة على ذاكرة الخرز المثقوب إلا من عقدة الرأس.

لم ينطق الرجل الأسمر خشن الشعر، والجالس تحت النافذة الصغيرة لاختلاس قدر أكبر من هبة الضوء، غير تلك العبارة منذ رد على تحيته بفتور يستبطن غاية.

سحب السمين درج الطاولة المعدني حتى ضغط على حدبة بطنه الكبيرة، محدثاً فصلاً جديداً من الصرير. ثم رفع الدفتر السميك وهوى به على سطح المكتب، ورسم بعينيه الخرزيتين يقين النصر وراح يعد الخانات الفارغة في الصفحة الكبيرة، تقويماً غير كل التقاويم، لا سبي ولا ميلاد ولا هجرة، ولا هيكل ولا فيل. تقويماً لم يحفظ أعياده غير ذاك السجل، وعيون منتظرة، وذاكرة بشر ضاعت حتى أسماؤهم من جميع السجلات، ومن جميع السجالات.

نجنا يا رب: رددها سمعان، بصوت لا يشبه الصوت، وعيون تغزل أوتار الفراغ على شرنقة وهم، وتنثر الأسئلة كغبار الصوف على ثنايا جسده المتعرق، وعلى ثنايا ذاكرته المحروقة بوبر الأسئلة وإلحاح الطلب.

لم يخف سمعان من غضب السمين، ولا من صاحب الشعر الخشن، خاف من نعومة حلمه ومن لهب السؤال. مرة أخرى غزل بعينيه أوتار الفراغ على غيمة، تحسس نحره أو عقله بأصابع مشلولة ويد هوجاء، استعصى قميصه المزرر على طلب التوسع كعصيان الذاكرة، تمنى أن تفيض السماء ويغسل المطر وجهه، تمنى

أن يرجع طفلاً يحمل شمعة القداس، أو يصعد إلى عمود سمعان العمودي فلا تطوله الأسئلة.

أين كنت يا سمعان ..؟ لم يقلها السمين المشغول بعدِّ الخانات الفارغة على صفحة السجل السميك. قالها سمعان لنفسه، صار هو السؤال وهو الجواب، وهو السائل وهو المجيب. بل صار هو السؤال عينه. كبر السؤال، وصار الجواب أصعب.

غزل أوتار الفراغ بعينيه مرة أخرى ومرة أخرى غاب وجه الرب، ركضت طفولته على أوتار الفراغ، صار الفراغ مدرسة، هرب من تسلط عدنان حتى سفح الجبل، فصدر الكوفة كان ضيقاً، وصدر البصرة أضيق. ومعلّم اللغة ذو اللحية المهدبة بالفراغ، يشد لجام عصاه ... سترسب يا سمعان. علة الحروف صعبة يا معلم وبعض الحروف يصعب عليَّ نطقها، فنحو القراءة يخالف ساحة المدرسة، والأذن تَهِبُ اللسان مرونته.

اقرأ يا سمعان اقرأ، والمعلّم يهش بعصاه من دون لجام.

لي لغة أخرى يا معلّم، لي لغة أخرى لها ضمائر وأسماء وصفات، ولها أزمان وأفعال كجميع اللغات.

غـازل بهـا زوجتـك همسـاً يـا سمعـان، أو قُـبلاً إن شـئت. كلّـنـا لنـا لغات أخرى.

لكن يا معلّم، لي تاريخ، والتاريخ لي ولك.

اقـرأ .... يـا سمعـان اقـرأ.. سـتلفظك المدرسـة، سـتظل موزعـاً بـين الشمال والجنوب، وكل مزقة منك يقتلها الشوق للأخرى.

أعرف التاريخ يا سمعان، من الألـف إلى اليـاء، وعنـدي في التـاريخ كتاب كامل.

لي تاريخ يا معلّم، ولـي وجـود، قبـل القـراء والكتابـة، لـي طفولـة لعب طويلة قبل المدرسـة، ولـي مغـامرات صيد كثيرة، ولـي حقـل سـنابل ممتلئـة وحلـم كـبير. ولـي روح ولـي جسـد، لـي نهـد أتقـن أسـاطير وصـاله قبـل أن يصـير الحـب خطيئـة، وقبـل أن تصـير قلفـة الذكر قرباناً.

لـي بيـت ولـي سـكن، ولـي كهـوف قديمـة. لـي لغـة أسـاكنها قبـل حروف العلة وترتيب الهجاء. لي وجـود يـا معلّـم، يمتد أطـول مـن قامـة ألـف البـدء، وحلـم لا يسـتريح في رحـم اليـاء. لـي وجـود أنـا أوجدته فأوجدني، ولي كون أنا كونته بامتـداد يـديّ ومسـحت عنـه رائحة العدم، فكونني. لي لغة يا معلّـم، لـيس فيهـا ألـف ولا يـاء،

لكن فيها ما يشبههما. ولي اسم قبل أن أعرف آدم وقبل أن يصير اسمي سمعان.

أين كنت يا سمعان؟ أين الزمن يا سمعان؟ أين التاريخ يا سمعان؟ أين أساطير البشر، وأين هياكلهم؟ كيف لُكتَ عظام الوقت ما أن علوت سطحاً يتحنث على صدر فلاة؟ وكم يوم مسحت من ذاكرة العد في يقظة حلمك؟ وكم كتاب!

سال الوقت على وجه سمعان وسال المكان، وتحجر الدمع في عينيه. أيقظه صوت السمين ينهي عد الخانات الفارغة على صفحة تقويميه، وينظر إلى شروده ببلاهة أفسدت متعة التحدي، وغاصت في هلامها حدة الصوت: سبعة أيام يا سمعان، زمن خلق كامل. أين كنت في تلك الأيام السبعة؟

رد سمعان بكلمة واحدة: لم أكن.

من أكل لسانك يا سمعان؟ أجب. صرخ السمين بتوثب واضح، وهش الآخر عليه بخرز السبّحة، أين كنت قبل أن تصل إلى هنا؟

كنت على الطريق: رد بفتور تراخى مع هواء الغرفة الساكن وأثار حنق السائل.

وقبل سبعة أيام أين كنت؟صار السؤال يلاحق السؤال واختلط سؤاله بسؤال السمين وسؤال النائب.

كنت ميتاً على سطح بيتي، في ظل تينة، إن شئت.

لم تصلنا رائحة جسدك "الطيبة"، ولا شهقة روحك "الطاهرة". لا تتحاذق يا سمعان ولا تتظاهر بالجنون، حتى الجنون لن ينفعك. قالها السمين، وذو السبّحة يوقظ ذاكرته بالخرز المطعم بالرصاص على جبهة التفكر وعلى مؤخرة العقل.

خشيت أن تكدر رائحة الموت حواسكم الشريفة. قالها بهدوء كامل، فوقف الرجلان وجلس سمعان.

قل يا سمعان .. قل .. وأرحنا من هذا الجنون. أين كنت؟

نام سمعان .. كان الصوت مثلث الأوتار ومدبب الحواف، لكن سمعان لا يجيب والمطر لا يهطل .. ذهب سمعان، وفارقته رائحة الجسد، لكن شهقته ظلت تملأ الفراغ الضيق في غرفة المكتب، وتملأ كل الخانات الفارغة على صفحة السجل السميك، تقويماً غير كل التقاويم.

قالت آكيتيا: هات سلالك يا أبي، أنا أكملها.

رد آدم العجوز من دون التفات: كل سلة أكملها ستحمل اسمك يا آكيتيا، ورائحة القمح المزهر وفاكهة الجنة. ثم تنهد بعمق كمن أحس بنقص الحياة، سأكمل تكوين اسمك بيدي يا ابنتي بعد أن عجز الكلام. لكن من فضلك يا ابنتي اصنعي لنا شاياً جديداً، فربما يعود سمعان.

أعادت أكيتيا ملء الإبريق المسود الأرضية، مرات كثيرة بعد أن غادر سمعان لكي يثبت وجوده، في مكتب الخدمة الاجتماعية، (حسب الاسم المدون على الباب).

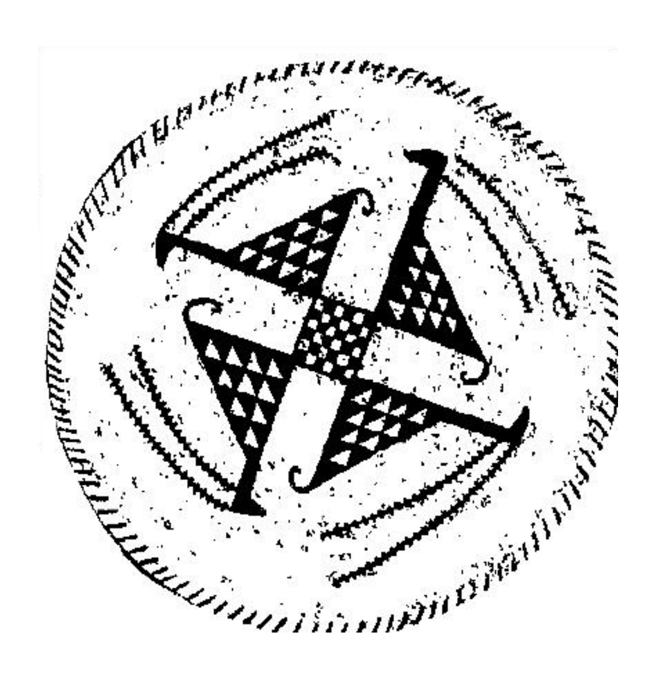
سلال كثيرة تراكمت على شرفة الجار، كلها حملت اسم آكيتيا، على الأرضية وعلى الحواف، وحملت رائحة فاكهة مجهولةٍ ومعروفة. سطور قليلة كتبها آدم العجوز بيد مرتعشة تحت اسم سمعان المدون بحروف كبيرة من لغة أخرى، دستها آكيتيا في صرة أوراق آدم المنسي على الرف الطيني المساير لعتبة الباب.

وازداد لعب المشيب في شعر العجوز الضارب للحمرة، وما زال يعطي لخيوط الشمس لون ضباب أزرق في كل صباح، بعد أن ينهي

طقس مرانه الصباحي، لكن آدم المنسي لم يصل، ولا سماء الغبيرة فارقت اسمها، وسمعان لم يعد ليشرب الشاي .

وكان مساء وكان صباح يوم ثالث

****



(سواستيكا الجداء حول البركة - من رموز الخصب)

الفصل الثاني

قوس الرمل

توقف الحمال فجأة بعد مسير طويل صامت، وتلعثم بأبجدية ساكنة الحروف، لطمت عارض الهواء الواصل بين لسانه وأذن صاحبه بقبضة الدهشة.

(ليس بعد) .. ثم أردف بأبجدية ساكنة أخرى: نبيت الليلة هنا.

لن نتوغل أكثر في هذا التيه كالعبرانيين قبل أن يهدأ هذا المد الزاحف نحونا، وتنجلي ملامح الرب في معالم الطريق.

بل ربما علينا أن نعود من حيث جئنا، فللصيد مواقيت، ولا تُنتهب الغنيمة من الصحراء في كل المواسم. فهذا الرمل المنافح عن عذرية أمه، لن يفرش لنا الغيم سريراً للضيافة في حضن الرب، والمن والسلوى من ماهية أخرى لا تحمل طعم التراب. وهذه البداءة أنثى حيوان شرسة، تشرب ماء الفحولة إذا واتت أهلّتها، وتأكل فحولها إذا فارقتها الخصوبة. وقد تأكل أولادها أيضا، وتكتفي بضوء القمر مذبحاً للعويل.

أوقظ كلام الحمال المشحون برائحة الحنين ونزق التعب المختزن في ضيق التنفس، منذ التياح الكون بحمرة ما قبل المغيب، عقل صاحبه الغارق في غفلة التأمل في رموز كتابه المفتوح على حوالى الثلث الأول منه على صفحات صفراء، شربت أكثر من حاجتها من ماء الأحبار، كأنها هي الأخرى كانت في رحلة سفر نحو الصحراء، فتزودت بقدر أكبر من محلول الماهيّة بسم الكائنات. وتلثمت بظلال الكلام كحقائق ملت من كونها حقائق، فتغلغلت في جلود الأسفار المنشاة بوبر الحيرة المنسول من تيه الهجرات السامية.

رفع "المحمول" رأسه قليلاً ولم يجب، ثم نظر من فوق نظارته المنزلقة حتى رأس أنفه الذي ما زال يتنسم رائحة الأحبار وعفن الورق المصفر، وحدق في الأفق الممتد جهةَ الريح لحظةً، ثم نظر بصمت صوب البعد الثالث من جسد الكون الذي عرته صفرة الشمس من ستر الأسماء، وهي تسحب ذيولها المغشاة بغبش الحرارة وسراب الرؤية. شعر بضغط زندي "حماله" المعروقين، يلجّان على عصب المناخ الرابط بين عظم الساق ومفصل الركبة في كلتا رجليه، فأومأ بكتابه المفتوح إشارة القبول، من دون أن يجهد أوتار حنجرته بهواء

الكلام. محافظاً على رطوبة لسانه تحل مذاق الحلاوة وخدر الينسون عن كريات بذور التين المجفف، في كهف حلقه المظلم الصفات، كغاية الرب من كهف الكنوز المنحوت في برزخ اللامعنى، بين مجهول الموت ومجهول الحياة على عتبات الجنة.

ربما كنت موفقاً في اختياركما حتى الآن!! ردد في نفسه بتخابث لا يخفي مداهنته لذاته، وهو يمد ناظريه نحوها تزلُّ حبيبات العرق عن جسدها النحاسي المحروق بالشمس، والمشدود كجسد عذراء من بابل تراقص أفعى مسحورة من أرض الهند، في معبد عشتار، وتنخر تحت شداد أمتعته الذي زاده في الليلة السابقة أكثر من حدود احتمالها. وما زال الحمال يجهل ماهيّة ما زاد منه على التين المجفف والماء، الذي اعتاد تعديل مخزونه في كل محطة قبل أن يدخل المسافة غير المأهولة من خلاء الطريق.

أي شهوة أشعلت التلاقح بين القوة والغباء، فأنتجت هذا الجنس العاقر من الأتن، كأحلام ملوك المغول؟ قالها بخبث يزاوج بين السخرية والجد: أكان آدم يعرف يوم وهب الأسماء، أن هذا الصنف من الأتن سيكون راحلة الأنبياء؟

أي جنس جمع ثالوث القوة والصبر والغباء الغريزي في دمه، فحاباه الأنبياء، وحرمه الرب من تلك اللذة؟!.

لو أنه حرمك منها أنت أيضاً، لاختصرت هذه الليلة من عناء السفر، قاصداً حماله الذي ما زال يلتهم بمنخريه المتوسعين هواء الانتظار.

"نخر" الحمال مستحثاً موافقة صاحبه على ترتيب المبيت، قبل أن يغسل الليل عيون الكون المتربة ببخار الماء الأسود. ويصب في سره لعنة حنقٍ تعبٍ على دورة الأفلاك: هذا الهلال المغبر كنضوة صدئة في دبر الشمس، سيأكل أحلامنا، كما أكلت حوافر الخيل أحلام الهلال الخصيب منذ حرقت عشتار عشاقها بلهيب خصوبتها، وتبتلت أرملة.

أحنى ظهره المحدودب كقوس الرمل الأسيوي الواصل بين الماء والماء، ورمى حمله، وأرخى عن كاهله ثلثين من تعب الطريق.

غاصت رجلا التاجر في رخاوة الأرض، واحتضن الرمل باطن قدميه حتى حدود الكاحل. حدق ثانية من فوق نظارته في وجه دليله المغبر، بعد أن استقام في وقفته، وأكمل دورة عينيه في وجه

الأفق المفتوح على الاحتمالات حتى حدود اللانهاية. وتمتم بكلام معجم، كأنه في طقس صلاة سري لآلهة مجهولة: ربما كنت موفقاً في اختياركما حتى الآن. ثم أردف بصوت مسموع هادئ، لكنه لا يخلو من لهجة آمرة لدليله: رتب لنا مكاناً للمبيت.

استقام الحمال برهة يشد مرونة جسده، وهو يشبك كلتا يديه خلف رأسه، ويعكس تقوس القوس الآسيوي المتلبس ظهره بخلاف تكونه، قدر ما أمكنه ذلك. ثم أطلق زفيراً طويلاً، ومضى يمهد مساحة مثلثة التشكيل على سطح الرمل غير المتطلب لكثير من العتاد أو العناد لتغير معالم وجهه، وقذف بثلاث نبتات هزيلة من شوك الصحراء، اقتلعها من مثلث وجودها، وطوح بها من فوق ظهر البغلة التي لم تحنِ رأسها لتشم رائحة الحياة من الأرض، كعادة الحيوان، وهو يتقدم نحوها، وخياله ما زال مسكوناً بالنضوات والحوافر والحروب وتاريخ العصور.

هزت البغلة جسدها المعروق تحت حملها بارتعاش موزون على ثبات قوائمها، كخصر راقصة شرقية، ونخرت تنفث غبار التعب

من منخريها المتوسعين، كأنها هي الأخرى تومئ بالموافقة على حط الرحال.

بسط يده على رأسها الذي ظل مرفوعاً باتجاه الريح، وهو يلقي يده على رقبتها برفق، متمتماً، كأنه يحمل منّة تعبها معه في تلك الرحلة، أو يشكر كتمانها لسرٍ تعرفه:

يا للجنس المحظوظ في الحرمان من اللذة، والبحث عن الخلود في امتداد النسل، ومن غضب الرب. لو أن تاج المُلك اقتصر على جنسك، فربما استقامت حدبة الكون.

أنهى الدليل مسح مثلث المبيت بعينيه برضا، وبدأ بحل شداد الأمتعة عن ظهر راحلته ورفع الأحمال. جراب من التين المجفف المضغوط بحبائل مسرودة من سعف النخل، من جانب، وقربة ماء مصنوعة من جلود الخراف المدبوغة بمسحوق جذر السمَّاق، من الجانب الآخر، دأب النسل على توارث مهنته منذ ألهم الرب خليله الأول وخليلته إلى حبك جلود القرابين الذبيحة ستراً لعورة الكهف. أو ربما قبل ذلك، إذا تنازل الإنسان عن بعض صفاته.

أنهى الدليل رفع الأجزاء الستة للحمل، ووضعها أرضاً بعد أن سلّم الجراب السابع لصاحبه، وما زال يجهل ماهيّته ونيّته. ثم ربت على كتف بغلته يعلن الإعتاق المؤقت لروح الحيوان الذي تسلط الإنسان عليه. فراحت تتمرغ على الأرض وتنفض ثقل الاسترقاق عن جانبيها، وتمهد لنفسها هي الأخرى مكاناً للمبيت.

وزع الدليل ذو الحيلة كل جزأين من الحمل على المثلث الذي كونه في الرمل، لغاية يعرفها، أثارت غبار الشك في رأس صاحبه ذي الأنف الدقيق الرأس، ومنعه تعجرفه المعرفي، أو ربما صبره الممزوج ببرودة متوارثة، من لفح دليله بحمى السؤال. ثم أخذ كل مكانه بعد أن رطبا شفتيهما بقليل من الماء.

رطوبة الليل تكفي، أما الماء فوجوده أهم في حر النهار، قالها الدليل بلهجة الواثق، وهو يعيد إحكام زمام القربة بالعروة المدلاة على صدرها كتعاويذ الكهان.

مسكين يا "أحيقار".. يا سيد الحكمة ويا حَمل القرابين المتعب من دغدغة الماء في القرب وفي الأفواه، لو كنت تعرف أن جلدك سيصير غطاء للعورات في هذا الرمل، أو قربة ماء، لكففت عن حلمك.

لو كنت تعرف أن عروق كبدك ستصير خارطة للدلالة على نية السماء، وخطوط دمك أيقونة لتبارك فراش العروسين في ليلة الزفاف الأولى، لكففت عن حلمك.

ستون امرأة عاقرت ولم تنجب، وستة آلاف جلد حولتها قرباً لماء الشفاه، أو رقاعاً لماء الأحبار ولم تنجب. لو كان لك عين ثالثة يا "أحيقار" أو (خصية ثالثة)، ربما تنازلت عن حلمك، ولم يعد المال والبنون زينة الحياة الدنيا. وربما صار للإنسان أكثر من وظيفة التكاثر، وقهر الموت بروائع أكبر من إكثار النسل.

أرخى الدليل هيولى جسده المتعب من ثقل الأفكار وتعب المسير، على الرمل الرخيم كجسد أنثى. وأردف وهو يسحب يده "المباركة" اليمنى من رطوبة الرمل ويدسها في سرواله الفضفاض حتى ملتقى فخذيه: كم كان حليماً ذاك الخالق يا سيد الحكمة! من أول يوم بعد الستة التعبة عرف أن الصلصال سيحن لماهيّته الأولى، ويعكر صفو راحته ولو بعد حين. وغام في تفكيره بين الجواهر والماهيّات المتكئة على أكتاف العرض والضرورة، متأملاً جوهرته المغلفة "بصفن" من قشر الجوز يحفظ سرها، أو يحفظ برودتها، في مكانها

المبتكر الجديد، منذ فارقت كهف الجيب المحاذي لجنة قلبه، بعد أن تسلقت كل شرور الكون على سلسلتها المغزولة من وبر القرابين المتقن الصنع، وتغلغلت في قلبه حتى رأس مثلثه الأسفل. فحلّ عقدتها وتركها تتدلى، (خصية ثالثة)، تكف شرور الكون عنه، أو تزيد فحولته.

ستون امرأة يا سيد الأحلام، ستون غواية وستون محرقة، أكنت تحلم "بإلهٍ" تربيه لنفسك، أم بكاهن يتوسط بين ملوك الأرض وملائكة السماء؟ أم بولد تخلِّد فيه روحك، وتؤدبه بالحكمة؟

ستون امرأة لم تخصب أي منهن من روح إله غيرك، تورثه الإلوهية والحلم الكبير، وتؤدبه الحكمة. هلا اكتفيت بواحدة؟! أو بسبعة؟! فالسبعة بغلة، مثلك يا "أحيقار"، لكن البغلة لا تجرّب ولا تقض مضاجع الرب في طلب الخلود، وتدمي قلبها بالحزن المعلق على جلد التجربة. ما زالت تنقل الحكمة منذ اصطفاها الأنبياء من جنس الحيوان، ربما لأنها لا تجرّب، فلا تنقل السّر حتى بالوحمة. وهذه الدنيا بغلة، زفر الدليل كلماته بتثاؤب مسموع يحل ملل الأرق عن هدهدة النعاس، ويشد بقبضته على "جوزته" التي لم

يكشف غطاءها كما اعتاد أن يفعل في خلوته، وأخرجها من دائرة المعاينة. فخيمة الليل قد أطبقت على إمكانات العين في تمييز أشكال المتعين من دائرة الوجود حوله، وعينه الثالثة، عين الماهيّة الزلقة، صارت تعرف عن ماهيّتها أكثر مما تعرف عيناه عن شكلها، وعن إشكالات تشكّلها. لذا، فقد اكتفى بالتأكد من إحكام تعليقها، ودسها في باطن سرواله متوسماً لقاءً جديداً فربما تشد أزر فحولته.

أباح الدليل لجسده إشغال مساحة أوسع من حضن الأرض الدافئ، فتوتر حبل وثاق الراحلة المعقود في فتق كمه الأيسر"آلة بدائية للإنذار بالخطر، مجساتها حواس الحيوان الفطرية" وعكر سكنتها. فنخرت تهز رأسها كأنها تستبطن اعتراضاً على الإخلال بحدود القسمة. ونخس رأس المثلث الثالث رأس شاغله الغارق في ظلال العتمة بغفلة ما يشبه النوم.

فتح عينيه بسؤال صامت يسترق النظر النافل، منتظراً عبور جواب ممكن لمثلث الاحتمال. ثم شاغل انتظاره الصامت بدس إبهامه في حنجرة غليونه المحشو بنبت السموم البطيئة، أكثر من مرة، ربما يوثق مكيدة لعلة الاحتراق، ويساوم الريح الملتفة على شبح الليل

علـى كـل الوجـوه الممكنـة لإشـعال الفتنـة في روح الماهيّـة المتعـددة الأجساد.

نهض الدليل بتثاقل، كأنه يطيل الاعتذار من جسد الرمل الذي غير بتمطيه ملامح وجهه، ومن روح الصمت الـذي عكـر صـفاء هيبتـه. حـل وثاقهـا مـن رتـق كمـه وتقـدم نحـو صـاحبه، ينشـر جسـده درءاً للزفر الزائد من أنفاس الريح عن ضرورة الاشتعال لفتيل الاحتراق.

اتقـدت أرواح العناصـر في حنجـرة الغليـون المحشـو، وشـهق الرجـل عدة أنفاس متلاحقة ملأت جـوف رئتيـه الضـامرتين بطبـائع الأشـياء ودخان الماهيّة، وتركت على سطح لسانه مرارة القطران. فهز رأسه بإيماءة شكر ملتبس، وغرق في سحابة من الدخان.

حرر الدليل رائحـة جسـده مـن مجسـات الشـم الخفيـة لأنـف صـاحبه الدقيق الرأس، وشـده مـن خاصـرة جرابـه بهـدوء حـازم، إلى رأس مثلث المبيـت المرسـوم علـى الرمـل، حيـث كـان الرجـل قـد تجـاوزه طلباً للاحتماء بجسـد الكثيـب. ثـلاث خطـوات، قالهـا بلغـة اللمـس بعدما جرد الليل محاجر العيون من مغارف الكـلام: ثـلاث خطـوات حلـم راكـض، بعـد سـفح الكثيـب المعـاكس لجهـة الـريح، إذا بقـي

لديك شغف بالحياة، وإلا ستكون جثتك هيكلاً مقدساً يحث شوق الريح المتربة المشاعر لبناء كثيب جديد. أما إذا عافت نفسك ماء هذا الوجود، فأي مساحة من خلاء هذا الكون مستعدة للاحتفاء بوليمة جثة. ولترح عقلك الواهن من تعب التفكير فيما قبل الولادة وما بعد الممات. وقفل الدليل عائداً إلى مكانه.

أخذ التاجر نَفَساً آخر من حريق التبغ قبل خمود الجمرة في حنجرة غليونه، واستعاد جلسته في مكانه الأول بصمت. للمرة الثالثة في هذا اليوم يخضع لإرادة دليله دونما اعتراض، في القلب أو في العقل، ومن دون أن يدري أهو ائتمان أم خشية. أنهى تدخين غليونه على عجل، ودسه في جيب جرابه، ثم تلفع كل منهما بلفاع وجهه، وأقنعة الأحلام وعتمة الليل، وغطا في نوم ثعلبي حذر.

وكان مساء وكان صباح يوم رابع.



حط الظلام على أرض الغبيرة، كحلم سمعان. تمطى آدم العجوز على فراشه الهزيل في صدر الغرفة المظلمة منهوكاً من تعب النهار، وغط في النوم كجثة فارقتها الرائحة، وبقي النَفَس وحده يقلقل حاسة الشم.

حملت آكيتيا بساطها المهترئ الحواشي، ورزمة الأوراق، وسرها، إلى الفسحة الأخرى من فناء الدار. أوقدت ذاكرتها بديلاً من ضوء القمر، وشبح فانوس لا يشرب الكثير من الزيت. كانت الغبيرة في ذاك المساء هادئة كأنها تتبرأ من اسمها، أو تغتسل من درن الصفات، ربما صارت "عمورة" كما أسماها آدم العجوز قبل أن تغادر زوجته للقاء ربها، كي لا تكون الغبيرة كهفاً. أو "الحويلة" كما أسماها سمعان ، لأنها حالت بينه وبين الأحبة، أو ربما تيمناً بجنة الرب.

أما اسمها الحقيقي، الغبيرة، فقد أخذته مما وهب القدير سماءها الزرقاء من غبار لا ينضب، مع ميل خفيف في نطق الصفة يناسب قريحة العوام في لي حواف النبر الساكن للكلام فتحضنه الأغاني، ويحن للإيقاع البكر في موسيقا الكلام، وربما يحاكي لغات أخرى تختلف في صوغ الصفة الأنثى للأسماء.

فردت آكيتيا أشواقها وأحلامها على أجنحة الليل، وعلى زغب أجنته الطرية كأهداب الغيم المثقل بزفرات النجوى، ورائحة عناقه العتيق لسواق بعيدة. وفردت صرة الأوراق الحاضنة لسور الحب وصور الذاكرة المنداحة في مسام الورق.

تراخى شداد البساط تحت يديها الناعمتين رغما عن أنفة الجفاف، وعن جبهة السموم الباردة. وتراخت في حرارة دمعتها أعصاب السؤال.

ترى أين أنت الآن يا آدم المنذور للتعب؟ في أي عتمة تغسل شبح الأمل الأبيض؟ وأي وحي تناجيه في سرك، وأي حورية ترد عليك الصدى. أين كنت يا آدم قبل أن يعرفنا الكون؟ وأي جنون هوّم بك على غمر روحي الأزرق التعب؟.. أي جنون؟

سحبت بضع أوراق كسيرة من عراك الخزن، ومدهوشة من جور نصل القلم الخائف من تمنع الوحي على وجهها الأبيض.

شربت أنفاسها رائحة الحبر المعتق، ورائحة خدر يمتصه الضوء الشحيح من قلب الفتيل حتى الثمالة، ويحله في ماء عينيها ليستحم الأرق.

قرأت ثلاث صفحات مزدحمة السطور من كتاب آدم المنسي في رمل القواميس، كتبها العجوز فصلاً لم يكتمل، وفي الصفحة التالية تتمة فصل لم تقرأ بدايته من كتاب لآدم المنسي مفتوح السطور، فلم تلحظ الفرق. لكأن آدم يكمل كتاب آدم.

أعادت آكيتيا قراءة الأوراق المبلبلة ربما للمرة الثلاثين، أو على الأقل لدور كامل من عمر القمر.

تماوت الضوء على جسد الفتيل، وغص الهواء على حرقة روحه، وعلى حرقة روحها. وحن كامل صلصال جسدها لعشق الأرض. نامت أوراق آدم المنسي على صدرها الدافئ، ونبضها يحل الحياة في جسد الأشياء، ويشعل الأشواق في روح الكلام. ينقط ما لم يكن منقوطاً من حروف تحث الشوق للنقط، ويرسلها في محفة الليل الكتوم أسفارا.

وحيداً ولم تزل.

وحيداً ولم تزل، تحاصر الليل بأرواح الفراشات وبخور الفوانيس، وتجاهد تمنّع التاريخ الزئبقي اللزج على التمدد في سرير الحكاية.

ها أنت ذا تعود لعادتك القديمة، تتقمص سبعة أرواح اللغات القتيلة بالصمت، وتطفئ نهنهة الحروف العليلة بعلة الشوق للتعري من ثياب الحمس الأجيرة، وبحرية الزوغان عن فلسفة التنقيط، والطواف الكيفي في محترفٍ للكتابة سقفه ظل العراء.

وتماحك بأظافرك الحولاء كواليس الذاكرة المنهوبة في رأسك الدامي، وتسرف في تقبيل عشيقتك السمراء بشفتيك المرتعشتين بتمتمة الكلام، ونفث المتبقي من حريق موسم حصاد أتقن أسلوب الفرار إلى أسر رئتيك، وأرخى هيولته تتمرغ في السم البطيء والذكريات.

وحيداً ولم تزل تستنطق أعواد الثقاب، عن أي نخلة تفخر برائحة الحريق ولم تزل شجراً. وتسأل رائحة السم في التبغ المحروق عن جهة الريح وحدود الكون، وتزم شفتيك المعتقتين بلون القهوة البني، على مر الطعم، ومرارة البوح بالأسماء.

أتراه كان مثلك ذاك الحالم المجهول الهوية، والمخمور بطيفها الدخاني، يحف مختبر الهذيان الرطب في مقدم رأسه بجذع النخلة العتيق، قبل أن يصبح شبّاكاً كسيحاً على حكايته المخفية؟

أتراه كان يمسح ركام السنين عن منحنيات الحنين الشقي لذاكرة دفينة؟ أم يمحو بتنكر طفولي بقايا الحروف التي أعيته بغثيان البحر في الدرك الأخير من علة الصوت في عين الخليل، وعنعنة الأقوال المبتورة من حرف الروي المسند إلى رمح السلطان الذي تناسخت عن خاتمه الأقاويل.

أم تراه عليل لثغ مستبطن في باطن لسانه من ضيق في النواجذ، موروث من ريح السموم وجفاف الرمل في هاجرة العرب القدماء؟ أومن هجرة قحطانية من فيض مأرب صوب الشمال، إلى أرض بابل، أو خراسان العراق، فتبلبل لسانه هناك، يوم بلبل الرب ألسنة الخلق زمراً، وأبرم عهده مع خليله "إبرام"، أن يمتد نسل الرياسة من صلبه، ومن صلب إسحاق إن أحنف عن دين اللوطيين، وكتب عهده بكوفية مضلعة الحروف وعليلة باللثغ القديم؟ أنا أحنف على دين إبراهيم، فاحترق "إنليل" وتبتلت "عشتار"، وأحل السيف في أهل العراق.

أتراه كان مثله" نيرون"؟ يحترق بمهماز التذكر ينكأ جرح هزيمته المفتوح على جسد الغيرة القتّال، فاحترقت روما تعقم أنوثتها الجريحة بالنار وحرارة الحياة، وتلفظ حلم الجنرال.

يا وحدك! كم تحترق وحدك،

كم قمراً ينحل في ماء عينيك قبيل الصبح

ولا تجد اسمك.

كم بوحاً يتلاشى في محفة الغياب الكتوم

ولا يشهر صفتك.

وكم شاعر قبلك قال للغياب، نقصتني...

فجئت لأكملك.

كم ينتقص من كمال الغياب وجودك الوهمي؟

وكم ينتقص من كمال الوجود غيابك؟...

ما أجهلك!

ما أجهلك حينما تستمد البلاغة من رماد الحكايا ...

وحينما لا تستمد من بلاغة الرماد حكاية

ما أجهلك.

وحينما تنبش قبور الأقدمين بحثاً عن نزيف حياة، في ثروة قديمة،
ولا تسأل الجاثمين فوق القبور الطرية عن ثروة بلد ...

ما أجهلك.

يا أيها السابح في خدر القهوة السمراء، ما أمكرك.

ما أمكرك حين تنكر ما وضع الإله من مكر بعقلك ..

وحينما تهديه هديته القديمة، مستغفلاً ..

ما أمكرك. .

ما أمكرك حينما تهدهد للتاريخ في سرير الحكاية،

كي يستفيق باكراً ...

وحينما تنكر أنك تروي للتاريخ حكايته،

وتراوغ في البدء من بدء الحكاية ..

ما أمكرك. .

أما زلت تناور اليوم السابع من بدء العد؟

أم تهرب من دوامة البدايات الأولى؟

وتخالس" لو" الأمنيات المكنونة في طيف الأحلام الدخانية، علك تنزع ثالثة الأثافي من موقد الأحلام المحروقة بالصمت، وتتربع على عرش الدخان ملك.

كم توهمت أيها المغرم بفلسفة العد، أن التاريخ يبدأ من عدد مفرد في سرد فصول حكايته، وأن الأزواج فواصل من فسق التشابه بين القادم والفاني من حلم الفرد وحلم الفرد.

سكر الأرق في عيني آكيتيا، وتسلل الخدر إلى أعصاب الكلام. تكور جسدها الطري في حضن الأرض كطفل يحن لدفء أمه. وأرسلت ذؤابة شعرها على لسان الريح المتخفية في حفيف الورق الذاوي على صدر تشرين، دليلاً للجهات.

وكان مساءٌ وكان صباح يوم خامس.

****

أفاق الركب بتواقت موحد على وقعٍ مثلث النغمات لأنفاس ذئاب، تكثفت عويلاً، من بحثٍ عن إشباع لغريزة الجوع المتحرك في أمعائها القصيرة، أو من طلب لسفاد ألح موعده على أنثى الحيوان، فأقلق غريزتها.

وقف الرجلان يسترقان السمع لصوت نباح يطارد عويلها، فينبئ بقرب نجع مأهولٍ يتيح الاحتماء من حر النهار.

هم الدليل يشد متاع الرحيل، مستعجلاً صاحبه الذي ما زال يحف لحيته بباطن كفه، كأنه يراودها على الحلاقة والاغتسال: أي تائهين نحن!؟ نسير بعكس مشيئة الصحراء، حتى الصوت يلتهم في الليل قدراً أكبر من جلد المسافة، ونحن ننام في الليل ونسير في حمى النهار! قالها الدليل بسريرته، لاعناً حكم الغبار.

اللحية تورث ضيق النَفَس، وقد تورث الاستعجال في طلب الموت المقدس، فتلح على القدر، وتحرض الأصابع الطويلة الأظفار للعب بشعرها المملس، قالها التاجر بلغة الأصابع، وهو يحرف رأسه عن منصّف المسافة بين كتفيه، ويتيح لأصابعه حرية اللعب بمساحة أكبر، من جلد الوجه.

ارتسمت عينا دليله في عينيه ارتساماً مشوشاً، في ضوء الغسق المستعجل لأجل الليل المقدر بهدف غامض. وفهم من حنو دليله المتكئ على جانب الحمل الحاضن لقرب الماء: إياك أن تفكر في هدر الماء على نعومة وجهك. بحق الأرواح المترسبة في قاع العتمة المتبقية من عمر هذا الليل، لا تهدر الماء يا أيها ... جزها جزاً إن شئت، أو اتركها لرحيل آخر في حلم الماء.

أما الدليل فكان يومئ لدفن ثلث المتبقي من زاد الرحلة في مأمن يسهل التعرف على مكانه من شاهدة قبره. فالقبور شواهد حية على مكانة أصحابها، إذا لم تتعرض للتزوير. أما الباقي فيخف حمله، ويُفصل نصف للذهاب ونصف لخط العودة إلى المكان نفسه إذا احترق الحلم. والثلث المدفون سيكون كافياً للحفاظ على الحياة المسحوبة من علة أشواقها لنقطة البداية.

فغياب الترادف في تلك الأصوات التي شقت سطح الليل الصامت، لا ينبئ بحدود نجع مأهول يرتسم على إحدى زوايا مثلث الانتظار المرسوم في غاية السمع، موازياً لمثلث المبيت الذي كونه في الرمل موجهاً رأسه الثاقب إلى جهة الهدف. فلا دخان بلا نار يعلن

سرها، ولا نجع مسكوناً بأحلام دم ثابت الحرارة، يستغني عن صوت رديف يحفظ هيبته، إلا إذا كان الحلم كبيراً، فعندها تصبح أحلام الآخرين سبايا.

رفع مرفقه المتكئ على جسد الماء بحنو خفيف، واستقام مستديراً نحو الجزء اليابس من متاع الدنيا. غرز يده في باطن يبوسته وأخرج نصلاً قصيراً، شهره أمامه ضاغطاً عنقه القصيرة بين الدلالة والإبهام، ودار حول نفسه متفرساً في جميع الجهات، كأنه يبحث عن وجه الله في خلاء الكون المنذور لحرية اللعب. أو يبث اعتذاراً مسبقاً لوجه حبيبته المجهول الاتجاه في تلك اللحظة العمياء، عن إثم قد يفعله، كصلاة الأطفال في جوقة الدعاء المنغم خلف الكاهن.

لم يستطع أن يميز في زحمة الأدلة المتشابهة، واحدة تصلح شاهدة تهديه في وقت آخر، أو أن ضباب الصباح الموشح بأهداب السواد المتبقي من عمر الليل، قد زاد التباسه. فأجّل عمله لوقت لاحق، مفضلاً استثمار الوقت المناسب للسير. وعاد يُلبس ظهره قوسه الأسيوي كحلم منكسر. "أردف رأساً آخر خلف رأسه مع الحفاظ على مسافة الرفعة"، ونخس حاملة الأسرار العاقر ومشى.

من يقنع بأن هذا الصمت الرطب الساكن بخشوع، كأنما حلت فيه كلمة الله، يعقب ذاك الأمس البدوي الثائر. قالها التاجر وهو يلوك الجزء الحلو من قَسَم الرب المجفف، ويراقب علقة الشمس الكسولة تمتص رطوبة المتبقي من دم الليل الأسود، وتحل الحشرجة عن أنفاس الصباح. ويغرف بعينيه شهوة اللمس الناعم لمنحنيات الإغراء الفاضح في جسد الكثيب الأنثى.

أي سر فيك أيتها البداءة، يسحب الجذوة من ثورة السؤال؟ لكأن الله ما زال فتياً هاهنا. أي صمت يلوذ في أعماقك البكر؟ وأي نحنحة خجولة، في تثني جسدك الطري على مطايا الخطيئة؟ وأي سفر من زحمة الأسفار يشرح هذا السفر؟.

دفع التاجر بلهاثه المكبوت، نحنحة خفيفة كأنه ينافح سطوة الصمت الثقيل، أو يساوم إلحاح ملوحة دمه على طلب الماء. ما أدهاك يا "ذا النون"! ما أدهاك يا "لورنس العرب"!! أي سحر علّق قلبك بمجاهلها؟ وأي حلم!؟

تنحنح الدليل هو الآخر نحنحة مقصودة، تكشف الغطاء عن نصف اللغة المضمر في النوايا. رسم بنصف هوائها المخنوق حدود

وجوده، وبالنصف الآخر رسم شارة تنبيه، تلقفتها أذن صاحبه فأيقظت غفلة عقله المأخوذ بسحر أمواج الذهب الأصفر. فالتفت يؤكد تمام التواصل بين الضمائر والمعنى.

لا تسهب في شرودك، أكمل الدليل النصف المعلن من نية الكلام: تلفع بلثامك، فقد تأكل عينيك ولحيتك القروح. وحاذر الأفعى، فالشمس تزيد احتقانها بالسم، وتشد أوتار جسدها، فتلدغ بلا غاية، أو لمجرد حنقها على نوم القمر.

رد التاجر على دليله بعبارة شكر، وأضاف متسائلاً: أيهما أخطر أيها الدليل، الطويلة أم القصيرة؟

كلتاهما خطيرتان، رد الدليل ميمماً كلماته بقليل من أنفاس المرح: قد تستميل الطويلة عينيك أولاً، لكن القصيرة قد تصل إلى قلبك أسرع، فبعض هذا النوع يطير بلا أجنحة، أو يغزل من حرارة الهواء أجنحة سرية.

لكن، كيف أحاذرها؟ وكيف أعرف بوجودها قبل أن تراني؟

ضحك الدليل ضحكة ملغزة: لا تستطيع. عيناها تمسحان قدراً أكبر من سطح الوجود، أما أنت فلا ترى إلا غايتك التي تسير

أمامـك، وتلمـع في عينيـك قبالـة الهـدف. لكـن، إذا دارت حـدقتا عينيك على إيقاع سريع مبهم، واحتقن وجهـك بالـدم، فـاعلم أن سم الطويلة في قلبك، وجسدها يتمايل أمام عينيك. أما إذا جمدت حدقتا عينيك ببلاهة واصفرّ وجهك، فاعلم أن القصـيرة تـرقص في شريانك، وسمها يحل الألوان في دمك.

ناس التاجر برأسه مبتسماً: أنت تلغـز بعيـداً أيهـا الـدليل، وكلامـك بعيد المغزى. لكن، لماذا لا تحدثني عن تلك الطويلة، فها أنت تجيـد لغتي؟

انـتفض الـدليل واقشـعر جلـده كأنـه يلامـس أفعـى: أحـرصُ علـى شرف لغتي، قالها بلغة الصمت، ثم أردف بحروف العلة: أنا دليـل ولست مهرجاً، وأنا مثلك لي غاية أكمل تكوينها في الصمت.

أنهـى الـدليل كلامـه بلهجـة حازمـة، ثُـم أعـاد ضـبط لثامـه الأبـيض الرقيق حتى حدود عينيـه، وسـارا يكمـلان بنصـف اللغـة المضـمر في النوايا، حديثهما المبتدئ بلغة الكلام.



نهض آدم المنسي في رمل القواميس يحف بيديه النحيلتين ثقل الليل عن مفاصله الخدرة، ثم راح يعاود طقس مرانه الصباحي برتابة يمل منها الملل.

غسل ظاهر كفيه بماء عينيه من إثم الأمس، وغسل باطنهما بمنقوع سرائد السعف. تذكر قول أبي العلاء المعري على شاهدة قبر مجاور، "هذا ما جناه أبي عليَّ وما جنيت على أحد". وتذكر ما جناه على نفسه وعلى غيره، وتذكر جاره سمعان، وسمعان[5] القديم وعموده، وسمعان الغيور[6]، وتذكر وعد الرب.

كيف غسلت وعد الرب بأسود عينيك يا أبا العلاء، فحبست الدنيا في محبسيك وحبست الآخرة؟ ألم يتناوب الليل والنهار على صدر

---

(5) **- سمعان العمودي** (389 - 459) قديس وناسك سوري عربي ولد في قرية سيسان وعاش في منطقة حلب في سوريا وهو أول من ابتكر طريقة التنسك على عمود حجري.

(6) **- سمعان الغيور** من شخصيات الكتاب المقدس، و **أحد الرسل الاثني عشر، كان** ينتمي إلى حزب الغيورين. اشتهر بموقفه القومي تجاه الرومان، ثم تحول إلى زعيم عصابة، ثم تاب على يد المسيح، وتعلم حتى أن يحب سجانه ويغفر له.

حلمك؟ أم ثمة قرابة مكنونة في فورة دمك الخفية، بين التين والعدس. أم أنك أنكرت الفرق مابين الليل والنهار، فعرفت الفرق ما بين الوجود و العدم.

سحب العجوز نصلين من سرائد السعف وصالبهما كما اعتاد أن يفعل في كل مرة يبدأ فيها رسم اسم آكيتيا على سلة جديدة، وكأنه يبدأ تاريخ الخلق. ثم ثنى رؤوس النصلين ثنية مزدوجة من كل جانب، فشكلت كل ثنيتين مثلثاً مرسوماً على رأس نصل، يشير رأسه إلى اتجاه الحركة.

ابتسم العجوز في سره ويداه مازالتا تحكمان ضبط الرسم الكامل لإيقاع الاسم، وقال: مسكين يا حامل الصليب المتعب من ثقل الحلم، هل كنت تعرف أن لصليبك المنكسر الرؤوس تاريخاً آخر؟ وأن لحلمك الضارب في التاريخ مكاناً آخر؟

هل كنت تجهل كم مدينة أكلها حلم كبير من قبل؟ أم كنت تعرف وأعماك على صدرها الجميل وجع العنة ...؟

كيف صبأت عن حضارة السؤال، واحترقت بنواميس الأجوبة؟ قتلتك العنة يا رفيق الشقاء ... و"قتلتنا العنة".

حرقتك العنة ، فأشعلت الأرض ، وأحرقت عصر هرمس المثلث الأسئلة. ثمة فرق يا رفيق الشقاء بين العلة والوجع ، مثل الفرق ما بين الوردة والرائحة. العلة في الجسد ، والعنة في العقل وفي الذاكرة .

أعمتك العنة ، فلم ترَ في قبتي نهديها المكورين بماء النشوة روح السماء ، ولم ترَ في توثبهما تمرد الأرض ، ولم ترَ في خصبهما ماء الحياة. أعمتك العنة .. وأعمتنا العنة.

صباح الخير يا أبتي : ثلاثة أسماء انزلقت على شفتي آكيتيا بوقع محبب ، وأيقظت عقل العجوز السابح في سديم الأسئلة.

السلام عليك يا مريم ، رد العجوز مجفلاً ، ثم أضاف : صباح الخير يا آكيتيا ، لا فرق في معنى العبارة ، فأنت يا ابنتي الحياة كلها. ها كوبك فاشربي الشاي قبل أن يبرد ، صنعته منذ قليل ولم أشأ إيقاظك من غفلتك الهادئة ، فقد يهرب منك حلم جميل.

سكبت آكيتيا قليلاً من الشاي في كوبها وهي تراقب نشوة اللون القاني تغتسل برطوبة الصبح الهادئ ، كما يغسل المطر روحه التعبة

في حضن القرميد العتيق، فأخذتها الدهشة، كأنها اليوم تكتشف طيفاً آخر للألوان. فابتسمت بصمت.

يا للألوان كيف تتغير! .. ويا للحواس! يا للحياة كيف تتغير إذا دبت الروح في أيقونة العقل، ورفرفت الرغبة بأجنحتها الطرية فوق شهوات النفس الخضراء.

أمس كان غبش الدمع في عينيها وهي تبكي على صدر آدم المنسي يغسل الألوان من فرادتها. وحين كانت تشد بقبضتيها على ياقة قميصه المجهول اللون، وتسأله ما الذي أتى بك إلى هذا الجحيم يا آدم؟ قال: ألوان صورتك في ذاكرتي لم تبهت، ورائحة عطرك الخفية لم تكتمل، ما زالت في توق لكي تصبح حياة. أو لكي تصير فكرة.

ثم تطوق عنقه بزنديها الناعمين، وتنظر في عينيه مواجهة: انظر حولك يا آدم، أين ترى الحياة؟ في سراب السماء أم في سراب الأرض؟

فيرد بهدوء: في عينيك يا حبيبتي. نحن يا آكيتيا نباتات صحراوية، ليس الماء هو القليل في فروعها، كثافة نسغها هي العالية.

وليست أزهارها هي الصغيرة، لكن كثافة ألوانها تشرب روح الامتداد من جسد المسافة.

كسر هدير الدراجة الثلاثية العجلات هيبة الصمت الجليل في صباح الغبيرة الهادئ، ساحباً خلفه زوبعة غبار تلوح من بعيد، وتوثق للغبيرة شهادة اعتراف علنيٍ باسمها.

نظرت آكيتيا حولها وقالت في تردد: ربما علي حمل السلال إلى المكتب يا أبي، ثم أضافت في سرها: أكره أن ينتهي ذاك المساء الجميل كحلم دافئ، وهذا الصباح الهادئ كبسمة طفل، برؤية ذاك الجشع ذي الكرش الكريه وسماع حديثه المنفّر. ورؤية رفيقه ذو الشعر الخشن، الطامع في الدنيا وفي الآخرة.

نظر العجوز نظرة خاطفة إلى وجه آكيتيا يستجلي أسباب ترددها دون أن تدري: لا تذهبي يا ابنتي، عندنا ما يكفينا.

ثم أضاف مبتسماً: من اعتاد أن يأكل أكثر سيجوع أسرع. هذا الصنف من العسكر يا ابنتي أنفاسهم قصيرة، وأمعاؤهم قصيرة، وسرعان ما يبحث الجائع عن فريسته. وعندما تقل الغنائم

سيفترسون بعضهم، وإن كثرت سيفترسون بعضهم لمجرد التنافس على اللقب.

ضحكت آكيتيا وقالت: عندما حملت السلال أمس إلى المكتب سألت ذا الكرش الكريه عن جارنا سمعان. فأجاب: ليس بينك وبينه قرابة ولا اسم لكِ في سجلاتنا، فلماذا تسألين؟

فضحكت وقلت: لست زوجته يا سيد، وليس لي اسم حتى في سجلات دولتك كلها، ولا حتى في الدول المجاورة، سجلاتكم حديثة العهد يا أبا نزار.

فردَّ ذو الكرش الكريه: إذا أردت أن تعرفي سره حقاً، تعالي ندعوك إلى العشاء ونطلعك على كل الأسرار.

فقلت: سمعان ليس إماماً يا أبا نزار، واختفاؤه ليس لغزاً، وأنتم لم يعد لديكم أسرار تخفونها، لستما هاروت وماروت، ولست شيطان الغواية.

فردّ الخشن ذو السبحة المطعمة بالرصاص بغيرة قاتلة: سأجلب هاروت وماروت من تحت الأرض، كما جلبت سمعان الراعي.

قالت آكيتيا في ضحك ظاهر: على كل يا أبي لن أذهب اليوم، فلدي ما أحب أن أعمله في هذا الهدوء النادر، ولنترك لصاحبينا الوقت الكافي للبحث عن هاروت وماروت، علهما يجدانهما أو يسألان عنهما المراجع. فربما يظنان أن هاروت وماروت اسم كوردي لرجل أحبه، أو اسمين لعضوين في منظمة سرية.

ضحك آدم العجوز بتوجس، وعاد كل منهما إلى عمله في انتظار أن يأتي أبو نزار ليأخذ السلال الجاهزة، إذا لم يكن مشغولاً في البحث عن ملائكة الرب الخاطئة.



مسح التاجر بعينيه نصف المغمضتين حدود الفراغ المشتعل بلهب الشمس الأصفر، ومسح عن وجهه ماء العرق الذي تركته الكلمات الأخيرة لدليله الشاب قبل أن يزم لثامه على شفتيه ويعود إلى لغة الصمت. كيف يصير الكلام لغة؟ وكيف يصير للغة أوثان وقدسية، كهوف ومعابد وكهنة؟ وكيف يصير لها شرف، وكيف تصير هوية؟ كيف تحل الرموز أنفاس الكلام في ماء تشكلها، وتنسج شبح المعنى؟ وأي وتر يحمل ماهية الكلمة؟ وتر الصمت أم

وتر الصوت؟ وأين تموت الغاية؟ على سكنات الحروف أم على نَفَس العلة؟ وعلى أي جهة من صليب الجهات يحترق المعنى؟ على جهة الداخل أم جهة الخارج؟ وعلى أي صليب يرتسم الرمز إلهاً، على صليب الموت أم على صليب الولادة.؟

مرة أخرى مسح الرجل بعينيه الباحثتين عن ظل الجواب، حدود الفراغ الملتهب بحرارة الشمس وعلة الأسئلة.

أين الخطيئة يا آدم المنذور للتعب؟ أينام في هذا الرمل الصامت كهف الخطيئة، رحماً دافئاً للتكوين الأول للمعنى؟

أتنبت في هذا الخلاء لغة لا تشرب رموزها من هذا الرمل روح الامتداد ونَفَس المسافة؟ أتكون الخطيئة شيئاً آخر غير المعرفة؟

يا للإنسان! كم يعرف عن نفسه وكم يجهل! وكم يعرف عن غايته وكم يجهل! أي سؤال دفعني للغوص في رمال هذا البحر وأي غاية؟

وأي أمل دفع هذا الطريد يحمل مؤونة حلمي في هذا التيه، للبحث عن وجود، وما زال ينافح عن شرف هوية. متى تلتبس الهوية بالأصل يا آدم، ومتى تفترق ...؟

هوّم فوق صدر التيه الرملي الأصفر طائر رمادي مائل للسواد، فضاقت حدود الفراغ في عيون الرجلين الغارقين في صمت التأمل وتعب الطريق ودوامة الأسئلة.

تعلقت العيون المنتظرة بغاية الطائر، وبحلم الأجنحة. تزاحمت سطور الأرض واتسعت سطور السماء، وتداخلت أحلام المسافرين وغاياتهم، صارت أمنية. وتمدد الأمل على أجنحة الرغبة، صارت الرغبة إرادة، وصارت الإرادة شغفاً، وصار الشغف حياة.

أثقل الحمل كاهل الدليل، وتوترت أعصاب عينيه المعلقتين برفيف الأجنحة من مفصل الرقبة.

ركع على الرمل الرخو، فغاصت ركبتاه في أنين الصرخة. حبت طفولته الشقية أمامه باكية، تعلقت يداه بأيقونة الطير الأصفر على كتف أبيه كثير الغياب، وتعلقت بإبطيه يدا أمه الباكية، وتداخل صوتها مع صوت أبيه المتخفي في عينيه، تعال يا بني .. لن يغيب كثيراً، لن يبتعد، وغداً سنلحق به. لم يصدق آدم المنسي يومها أن أمه لم تكذب لتهدّئ ثورة صراخه، وتتيح لطير أحلامها حرية التجول. وأن حلم ذاك الطير سيوصله إلى مآل النهر الرابع من أنهار

الجنة، وأنه سيكبر يوما ويتبعه. وأن أيقونة الحياة التي لم تكد تكمل تكونها الجنيني في البيت المجاور ستصير رفيقته المشاكسة، وتدخل في حلم الأمس الخجول كلما لاح طيفها الشفيف في أفق خلوته، وستصير قضيته المتخفية في ستر القضايا، وتسحبه من علة أشواقه، من ثالوث القضايا إلى وحدتها، فتصير هي الوجود، وهي القضاء، وهي القضية.

صّوت الطائر بألغاز لغة مرمزة، فنبتت في غيهب الأفق ألغاز رموز أخرى. تنافست الطيور بعلة أصواتها، وتغازل بعضها بريش الأجنحة، غزلت عيون الرجلين من سطور السماء شغفا جديداً، وتنفسا من هواء الوجود شهقة رطبة. فالطائر يحمي فريسته الحية أو فريسته الميتة، ولا فرق إن كان في الميمنة أو في الميسرة. فالفريسة على طريق الماء، وعلى موارد الماء تقتنص الغنائم، وعلى طرق الماء تولد المدن وتشيخ، أو تأكل رطوبتها الحروب وتنتحر على جفاف ضفافها "أسماك المعرفة".

تمدد آدم المنسي على رمل الخليقة الرخو بكامل هيولته، غطى عينيه بكمه الفضفاض، وغرق في نوبة ضحك يشبه الضحك.

غاب عن عينيه لون الطائر ولون الأرض، صار الكون بحراً من الرمل الأزرق، وصدره يجمع الهواء ويفلته كأنه يقاوم الغرق في زرقة الرمل، ويغوص مرتعشاً في حلم يقظة.

تعلق آدم بضفيرة خليلته المعفرة برائحة الرمل الندي بشغاف القلب، وشدها من هدأة الليل، فدانت من مقلتيه شمس الحويلة صهيلاً، وانتصبت على أفراسها الجهات.

غسل عينيه بمرود الضوء الشفيف فتوهج وجهها لججاً، وتكثف وجه الغمر شجراً من كل صنف تداعبه ريح هدباء بشبابيك الظل، تهدهد صغار الطير في أعشاشها، ونهد التفاح يتضوع سحراً، وضجت العناقيد بماء الفرات يغسل وجه الخطيئة من وخم الرمل وامتد الخصب نقياً في نسل الأرض، وفاضت من لدن الإله في النسل أسماء جديدة.

رفع آدم المنسي كمه الفضفاض عن حدبتي عينيه قليلاً، وغرق من جديد في نوبة أطول من الضحك، وصدره يعلو ويهبط بتواتر أسرع. عجباً كيف يغطي الإنسان عينيه ويبحث عن وجوده، ويغلق أبواب حواسه ليجد المتعة في الحياة!!

الحياة هي الحياة، والحياة في الحياة، ما قبل وما بعد صفات تابعة وأسماء أخرى. الحواس أبواب المعرفة وأركان الحياة.

الحياة وجود، الوجود شوق ورغبة، الرغبة حقيقة، تظهر وتختفي، تكبر أو تتلاشى حتى العدم، لكنها تظل حقيقة حتى الملل.

الرغبة ماء، الماء حقيقة أخرى، الأنهار أسماء، والبحار صفات، والسماء صفات أثيرية، الماء حقيقة، في القطرة وفي البحر، الماء أنا، والرمل أنا، وأنا عناق الرمل والماء، كل ما في الأرض صفات لي وإن أنكرتني، وكل ما في السماء صفات لي وإن تعرت من درن الصفات.

الطائر ما زال يحرس فريسته الحية أو فريسته الميتة، الطائر حلم، والحلم رغبة عابرة للزمن، والفريسة على طريق الماء.

الماء حياة، وكل نهر يحفر مجراه هبوطاً، ما دام ينبع من قبة نهد عظيمة، إلا أنهار الجنة.

الجنة حياة أثيرية، والماء كل الحياة، ولا فرق في الحياة في ما بين النهرين، أو ما بين أنهار الجنة.

اقترب التاجر من جسد دليله المرتعش بخلجات كأنها خلجات الموت، رفع يده عن جبينه المثلم بأنهار من الماء المالح، تحفر مجاريها في غبار جبهته الملتهبة. ثم انتهره بلهجة حازمة: قم لا تنم، إياك أن تنام على متعة هذيانك الوثيرة، وأضاف في سره: أي غافل أنا، وأي عاثر حظ، أتعلق بحلم طائر يستبيح السماء بجناحيه، وأغفل عن حلم دليلي.

نهض الدليل وفارق متعة هذيانه بتثاقل، جفف أنهار عرقه بقماش كمه الفضفاض وبلل شفتيه بالماء الحار، ومشى محطم الروح ومحطم الجسد، يتبع إرادة التاجر. والطائر ما زال يحرس فريسته ويستبيح السماء بجناحيه، والإغريق يذوبون في حلم روما، وعصا موسى تسعى في الأرض لمآرب أخرى، ومأرب يفيض صوب الشمال لغات جديدة، وبلقيس تذوب في أشعار سليمان الغزلية، وذو العنة يسرق الصليب عن جناحي الطائر، وذو الفقار يمد العباءة من تخوم الشام على نِحل العراق.

مسح آدم المنسي تيه المكان بزوغان عينيه المتورمتين من انحلال أخلاط التكوين الحارقة الأولى في علة النظر، فتراخى وتر الانتظار

على وتر المسافة، وتلاشت صبوة الحلم. خسفت الأرض مهادها العتيق تحت قدميه مرات عديدة، تعديلاً أعمى لنواميس ثقله الظاهر، صار دليله أبعد من مرمى النظر المكنون في غاية الرؤية. وصارت الرغبة أجنحة حنين للنوم الجنيني في حضن الأرض، أو العودة.

ارتعشت في صدره أنفاس جديدة، واحترقت في رئتيه المزكومتين بحشرجة تنفسه البكر على منعطف الحياة، رمى بيد أحلامه الطويلة إلى روح الحياة المحمولة على حاملة الأسرار، فأصابت منها مقتل خصوبتها.

صرخ بعلة الصوت المبحوح في حنجرة الوجود النافر عن مرتسم الموت في نحر الرقبة، انتظرني فانا دليلك .. لا تبتعد أكثر .. فنحن في مركب واحد.

رد التاجر من غير التفات إلى حال دليله: لا تنم، ولا تصغ لهلوسة عقلك المحموم من ضربة الشمس، ولا لأحلامك العاقر.

اتبعني فأنا دليلك الآن، اتبعني، فلا أستطيع حملك ولا تركك، أنا معك عاجز عن إكمال الطريق، وبدونك تائه. لكنك ميت

بدوني. اتبعني لا تنظر إلى الخلف، لا شرف للغة على مفترق الحياة والموت، وها أنت تعرف لغتي. الخلف ماض، الماضي أفصح عن أفضل مكنوناته. النوم موت مؤجل، والهروب نحو الوراء موت هادئ، والهروب للأمام مغامرة. اتبعني لا تنم، فللعقل المحموم مركبة مغامرة، والعقل الملجوم أرجوحة للنوم.

شعر آدم المنسي بضيق خانق في رئتيه وفي نفسه. اتسعت خطوات التاجر وضاقت خطواته، كأن جلد الأرض ينكمش هناك، ويتمدد أمامه. اشتعلت بداخله إرادة الحياة، وأنفاس المنافسة، وشرف اللغة من جديد. حض روح الشباب على حنكة التجربة ومصابرة الكهولة، تمسك بلجام الراحلة، وبعروة القربة وبرائحة الماء، وسار يحرث الأرض بقدميه بإيقاع مضطرب. غاب التاجر عن مرمى نظر آدم المنسي. وغاب الطائر. فرأسه الخدر تحت العصابة التي غطته حتى هلالي حاجبيه النابضين بالألم، لم يعد مرفوعاً نحو السماء، ولم تعد عيناه تريان الشمس منارة تحكم عقد الجهات على نواصي السفر، ولا تريان القمر. ضاقت قبة السماء الرحبة فوقه، صارت مظلة من النحاس المتعالي على كرامة نشأته الأولى، وصارت الأرض بساطاً من تبر مزغول يسرح من حواشيه النمل الأحمر.

عـرى النمـل بـاطن قدميـه مـن حاسـة اللمـس، وصـعد علـى شـعر رجليه حتى مفاصل الركب، فسار خفيفاً كأنه يركب الهواء، بـلا ألم ولا تعـب، شـد لجـام راحلتـه وعـروة قربـة المـاء بيديـه اسـتحالتا قرون أيائـل، واسـتحال الرمـل المهـدب برمـوش عينيـه ظـلال ملـوك الجـن، تسـحب الأرض إلى الـوراء مـن تحـت قـوائم العربـة. وحـده صوت آكيتيا الرنان كصفاء الذهب الخالص، كان يشد مفاتيح الـوتر المجهول في دهاليز أذنيه بعكس عقـارب السـاعة، وزنـداها المطعمـان ببريـق الفضـة العتيـق يمسـكان بياقـة قميصـه المـزرر حتـى العنـق، ويشدانه من غفوة المسكونة إلى صحوة المعمورة.

لست بلقيس يا آدم المنسي في ملحمة التعب، لا تـزجني في حـريم سـليمان، فلسـت جاريـة، إيـاك أن تنـام يـا آدم، وإيـاك أن تتبعـه في غياهب الرغبة وظلمات الغاية.

لست بلقيس، ولست جارية، وبلقيس ربة الملوك وليسـت جاريـة، بلقـيس دورة الحيـاة الخارجـة مـن جـوف السـكون الغـامض، وأنـا أمها، ريحانة روحها، وروح العنب.

لست بلقيس يا سليمان الحاضر وسليمان الماضي، لا تزجني في

معتقل الحريم في قلبك، وفي قلب دليلك القاسي.

أعد لي دمي من جرار النبيذ المعتق،

ومن دم الأيائل.

أعد لي اسمي من طلاسم الصحف القديمة،

ومن سموم الحبر.

أعد لي وجهي من ذاكرة الخطاة،

وأعد لي عفتي من سجع الكهان وأدعية التوبة ووجع القصيدة.

أعد لي روحي من ريح الكروم، من طيور البرق،

ومن رحيق الشمس،

أعد لي تاجي من عبق البنفسج وحناء الزهر.

أعد لي جسدي من معاقل الجنة، ومن جنون الأتقياء.

أعدني قمحاً .. فرفقتي هناك في حقول القمح.

احمني من طمع النحل برحيق اشتهائي،

ومن طمع النمل.

واحمني من طمع سليمان بممالك النحل والنمل،

وسموم العسل،

ومن طمع دليلك بأرواح الكنوز القديمة،

وكهوف المِلل والنحل.

اصح يا آدم، لا تنم، ارفع عينيك عن غبار الحوافر،

انظر إلى صدر السماء ستراني.

أنا نجمة الصبح البهية،

قلادة النور الغوية على صدر الليل الساحر،

وربة السَحَر.

قدماي حمامتان زاجلتان من المرمر،

وأظفاري بتلات الياسمين.

ساقاي أعمدة الرخام الأبيض، وزبد البحر.

نهداي لجج الماء المهاجر نحو الغيم، قبباً للعبادة،

وسرتي عقدة الأسرار الأولى في اشتهاء السؤال المحموم على شفتيك لخدور الأجوبة.

أنا ملكة الشمال وملكة الجنوب،

وأم الجهات الأربع على صليب التكون.

أنا روح بابل ورائحة عدن،

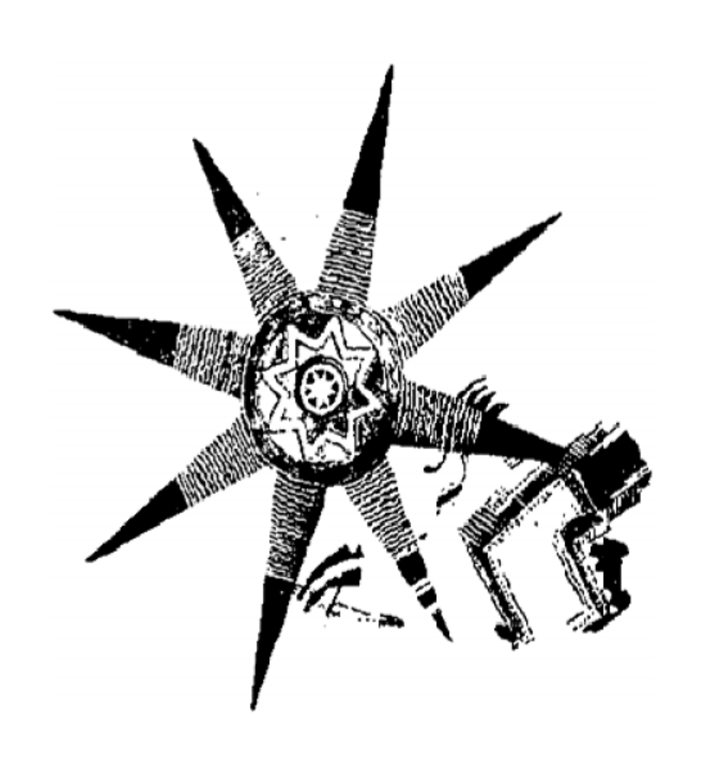
نوارة النور، ومقل الربيع الضاحك.

أبي أسماني درة السماء، وأمي أسمتني زبد البحر.

كتب اسمي برائحة الفاكهة الشهية وصلبان السعف،

وممالك الزوال أنكرتني.

سر يا آدم، لا تنم، فالطير ما زال يحرس حلمه، والطير على طريق الماء. لم يدر آدم المنسي من قال العبارة الأخيرة قبل أن تبرأ حواسه من علل اشتهائها، دليله التاجر، أم بلقيس الجنوب، أم آكيتيا الشمال، رفع رأسه صوب الشمس، تعلق بحلم الطائر، وسار خفيفاً على طريق الماء.



(نجمة الغسول الثمانية)

تشير هذه اللوحة الجميلة إلى الشمس أو الزهرة، الآلهة الأنثى
وهي عبارة عن ثلاث نجمات متداخلة، وربما دلت هذه النجمة.
على الآلهة "عشتار أو إنانا" لأن رمزها الأول هو كوكب الزهرة.

الفصل الثالث

مراكب الجن

طيف من الفرح المخرم برهبنة الخوف، تنكر بحمالة الصدر، ورفع دعاء تصوفه الخلاصي في برزخ العماء المؤقت بين ملتقى الطيرين، فعكر نهار آكيتيا الهادئ، وحلم الأمس الجميل.

حارت آكيتيا بين الحقيقة والحلم، وازداد خفقان صدرها كأن طائراً برياً تسلل بخفة جناحيه حتى شغاف القلب. واعتصرت من شفتيها طعم جفاف مالح، ومن روحها رهبة المجهول السادر على فرج الانتظار.

هل كنت تعرف يا "أحيقار" العرش المحصن بأسرار حكمتك البهية أن للانتظار طعماً غير طعم الشهوة المحروقة بتمنع النشوة وجفاف الرغبة؟ وأن له أصنافاً من الطعم، وبعض تلك الأصناف مالحة.

هل كنت تعرف أن حبال الضوء النافذة من خروق الباب، تحمل في دقيق أوبارها لصدر المرأة رسائل مجهولة، لا يقطعها السكين هي الأخرى. وقد تكون "محصول ثلاث سنوات من غلة مصر".

وقد تكون قصوراً من شغف الأمل بطوب الحلم الزاهي ، معلقة بخيوط الضوء بين السماء و الأرض. وقد تكون ثلاثة وعود متقاربة الآجال ، تسحب الشوق من وهم تخفيه بحمالة الصدر إلى رعشة الشفتين ، وتترك لهفة النهدين في حيرة.

لو كنت تعرف يا "أحيقار" العقل الراجح ، يا صاحب الشوق الموزع على أصابع طفل يعبث بلحيتك البيضاء ، لو كنت تعرف .. لو كنت تعرف أن للشوق في صدر المرأة مقايسة أخرى ، وللخوف مقايسة أخرى ، وللنسل مقايسة أخرى ، وللانتظار مقايسة أخرى. وأن لها حواس تستشعر الخطر بقبس النهدين ، ربما أكملت حكمتك البهية ، أو ربما كففت عن حلمك.

ليس الشغف بعلة التفاصيل الدقيقة الأوصاف ، هي الأصعب في المرأة يا "أحيقار" ، الأصعب فيها فلسفتها الصامتة.

ذرعت آكيتيا فراغ الغرفة الضيق كغلالة الصبر عدة مرات لغاية مجهولة ، عبرت خوخة الممر نحو الفراغ الحاوي على متاع المعيشة المنضد على رفوف ما يشبه الدكان ، أو ما يشبه المطبخ ، باتساق لا ينقصه الترتيب ، ومسحت بزوغان عينيها ظاهر الموجودات ، كأنها

ترسم تفسيراً لهاجس السؤال المتغلغل في حيرة صدرها، ينبغ من جوف سكون الأمتعة.

اتكأت بمرفقيها على دائرة وجه الشمس المتسللة من كوة الجنوب الدائرية، تبث الحياة، وتضفي البهاء على الخشب المطعم لغطاء الصندوق الحاوي على أثاث أمها، وذكرياتها المحفوظة، كأنه هو الآخر "تابوتٌ للعهد".

أين أنت الآن يا آدم؟ كأني أتحسس جفاف شفتيك بأصابعي. بثت آكيتيا نجواها على دقائق وبر المجهول المغزولة على وهج الشمس بأصابع الأمل الخفية وأبر الانتظار.

أين وجهك الآن يا أمي؟ أحن إلى الارتماء على صدرك الدافئ، يورثني جينات الصبر، ولو مع العلة.

من أين ورثت الصبر، يا أمي، وجينات الانتظار؟ من عمود سمعان العمودي أم من أعمدة الملح أم من حكمة "أحيقار".؟

وكيف يفرغ أبي المسكين جوف رئتيه من ملل السكينة قبالة طيفك، ثم يملؤها بعبق السموم وبالملل الجديد؟!

أيكبر الصبر مع العمر يا أمي وترتفع عتبة الألم؟ أم يبني الإله منازل لغيِّه في سكينة النفس ؟

تكثفت حبال الضوء المتسلل من كوة الجدار الجنوبي الدائرية أمام وجه آكيتيا، غباراً عكر صفاء النظر لديها وصفاء الشم، وعكر حواسها الأخرى، كان هدير محرك دراجة أبي نزار وصحبه بعجلاتها الثلاث، والمورثة من هدية هتلر العنين لكل من يمت له بصلة القرابة النفسية، ينخر أساس البيت الرقيق، وحواس المبعدين. ويشتت رسائل النجوى في رأس آكيتيا وسيل الذكريات، وهو يبحث عن متسع لصولتها في ساحة الدار الحزينة، ودهاليز السمع.

وقف آدم العجوز لملاقاة الضيوف منقبضاً، واستشعر بغريزته الثورية العريقة، أن في وجه ضيفيه ملامح لا تضمر المودة، وتجارة تقفز من تجارة السلال إلى تجارة الرقيق الأبيض.

ترجل أبو نزار عن سرج حصانه المموه بحدبة كرشه المهتزة، وانتهر العجوز بلهجة قاسية، من دون أن يسلم ويمد يده كعادته لقطف المكاسب: أين ابنتك يا آدم؟ قالها أبو نزار بلهجة من يفصد الجواب من دم السؤال.

عله خير يا أبا نزار، رد العجوز بهدوء مبالغ فيه، يمتص التمادي من لهجة السمين، ويقطع الطريق على توثب عدنان الصافي،

المرافق ذي الشعر الخشن، للمشاركة في الحديث. فآدم العجوز أدرك من فوره أن عدم الجدوى من البحث عن هاروت وماروت، والقبض على ملائكة الرب الخاطئة، أمر يخص عدنان الصافي أكثر من أبي نزار، الذي تشغله أجنحة الملائكة المذهبة بمارج الشهوة ونَفَس الرب، أكثر من سماء الغفران وأرض الخطايا، أو إحياء الغبيرة وخلود الرسالة.

ابنتك مطلوبة للتحقيق معها يا آدم، قل لها أن تحضر فوراً. أضاف السمين: لقد أهانتنا ابنتك يا آدم، وتجرأت على ملائكة الرب وحرماته.

تصنع آدم الهدوء وهو يخاطب أبا نزار بشيء من المماطلة المقصودة: الرب أقدر منا يا سيد أبو نزار على حماية حرماته، فمن كان أحرص منا على حرمات الرب وبيته، وقبل أن يعرف ملائكة الرب، و ربما قبل أن يعرف الرب كما تعرفونه، قال لإبرهة الحبشي: " للبيت رب يحميه، أما أنا فجئت استرد إبلي وغنمي." وهذا العام ليس عام الفيل، ولم يولد نبي من بعد عام الفيل. أما بشأن ما لحقكم من إهانة من ابنتي كما تقول، فربما كان طيش

النساء، أنت تعرف ... ولكم علينا الاعتذار وتسوية الأمر، فتفضلا بالجلوس لنشرب الشاي.

عقدت آكيتيا قلق هواجسها بأصابع يديها المرتعشتين على صدر تابوت ذكريات أمها الصامت صمت القبور، تسترق السمع لحديث الرجال الثلاثة في فناء الدار، تاركة لحنكة العجوز التعامل مع حراجة الموقف، وإن كان لروح الشباب بداخلها بعض التحفظ على المهانة. فالتسوية كغيرها من بعض أوثان الكلام ما زالت تترك وقعاً حسياً مرذولاً في نفس آكيتيا، كما في نفس الكثيرين من فقهاء السياسة وفقهاء الكلام.

لمس العجوز بحنكة تجربته، أن لهجة النكسة في صوت ذي الكرش السمين تعقب نكبة الأمس في موقعة المكتب، وأدرك في قرارة نفسه أن النزول عن الوتر الأحمر في نَفَس الثورين المقنّع، يعني سهولة المساومة على ثلاثة أوتار المنفعة الخضراء في عقود المقاومة والممانعة والقبول، إذا أتقن التنقل بينها "بقميص عثمان" أو "بشعرة معاوية ".

ثم أضاف العجوز بصوت مسموع ولهجة حازمة: ابنتي في سن الزواج أيها الرجال، تحتاج لظل رجل يحميها، وإن بدا منها تصرف

طائش، وأنا عجوز ينتظر لفتة الله لوضع حدٍ لشقاء هذا العمر، وهي منكم على خلاف في العرق ونصف الملة، لكني لم أعرف حتى الآن من هو الخاطب.

ذهل أبو نزار ورفيقه عدنان الصافي من هجوم العجوز المباغت من الثغرة غير المتوقعة في تحصين الرجلين، كأن قناطر السماء الموشاة بعبق حزيران الأزرق، والتي رفعاها بعارض صدور تنتظر الأوسمة من خصب الجولان ذات يوم، ثم طارت على جسر بنات يعقوب وتلة الخياط كأبواب القنيطرة، تعيد الحياة للذاكرة الميتة من جديد.
لكز ذو الشعر الخشن صمت رفيقه الذاهل، وزوغان عينيه في تخيل جسد آكيتيا يدرج أمامه، مشتعلاً بزهو الأنوثة وعبق الإغراء، ورنة صوتها المعلق في بهو اشتهاء أذنيه من لقاء الأمس، يدوزن وتر الرغبة على عقد المطالب.
مرة أخرى لكز الصافي بصوته شرود رفيقه المتهدل على عينيه كمسحة بلاهة: لسنا في وارد الزواج على ما أظن يا رفيق، أليس كذلك؟

استجمع أبو نزار وحدة أعضائه المفككة، وبنيان أفكاره المخرّق بشبابيك الوهم التي يفر منها جسد آكيتيا من فراغ إلى فراغ. ووجه

كلامه إلى آدم العجوز، محاولاً أن يستعيد لهجة السيطرة: سنذهب الآن يا عم فلدينا عمل نكمله، وسأمهلك حتى صباح الغد، أريد أن تكون ابنتك في المكتب باكرا.ً

كما تريد يا سيد أبو نزار، كما تريد، رد العجوز، وحمل بيده كومة من السلال سبق أن جمعتها آكيتيا في الصباح بضفيرة ناعمة. ناولها لذي الكرش السمين وقال: من هذه السلال يا إخوان، واحدة بمثابة اعتذار منا لهاروت، وأخرى اعتذار منا لماروت، والثالثة اعتذار من هيبة الرب، وأخرى للاعتذار من هيبتكم، أما البقية فأنت أفضل من يجد لها سواء الطريق. رافقتكم السلامة، قالها العجوز بحزم، فاختلطت في ذهن صاحبه سلة السعف بسلة النواميس واسم آكيتيا.



بدأت الشمس تطفئ حمى اشتياقها في صدر الأفق المشتعل بحمرة الخجل، وتسحب شوك أهدابها من معارج البغاء المقدس في رأس آدم الممزق بين بلقيس الشمال وبلقيس الجنوب، هاربة من فيض الماء الملاحق لهزيمتها. والتاجر ذو الأنف الدقيق الرأس يحث يقظة

دليله المحروق بلسع النمل الأحمر في باطن جلده، ويسرف في صب الماء على رأسه، ويطفئ فتيل الاشتعال في جبهته المخدرة بسموم النمل.

انهض أيها الشاب، انهض، انتهر التاجر دليله بحزم: انهض أيها الشقي. اغسل حواسك من عقم اشتهائها، بحقيقة الماء، وانفض سموم الأحلام الكبيرة من رأسك الساخن، وصور الوجود المزيفة بهذيان الذاكرة الممتدة في عروق الزهو الماضي.

كُلْ شيئاً يعيد رطوبة الحياة لجسدك الواهن، واشرب كثيراً من الماء علك تعرف حقيقتك. أنت الآن يا رفيق الشقاء حقيقتك الكاملة. أنت الشغف الواصل بين آخر الماء وأول الرمل، وأنت ممكن التاريخ النازف من نتح الحياة، ومن ثُمْلة الفراغ الفاصل بين الماء والرمل ومسام الحقيقة.

عد أنت يا رفيق الشقاء، عد أنت، فأنت الرمل وأنت الماء ومسام الفراغ الدافئ في رحم الوجود المؤبد التعلق بسرة الأزل.

كانت كلمات التاجر المنتهرة تخز آدم المنسي في علة السمع، وصوت الماء المنسكب على جبهته الساخنة يشده من خيوط شرايينه للتعلق

بنـبض الحيـاة، أمـا الكلمـات الأخـرى فلـم يسـمعها، ولم يصـبها صاحبه أصلاً في فجوات أذنيه، بـل كـان يشتتها دوائر على سطح الماء المحروم من علل الإثارة، إلا إذا ترقرق شفافاً على نعومة جسد.



انزلقت يد آكيتيا التي ظلـت مشـدودة على صندوق ذكريـات أمهـا الدفينة منذ وصل ضيوف الرب إلى بيت أبيهـا، كأنهـا تمـتص المناعـة من صدف الخشب المقاوم لعراك السنين، فـلا تنظر إلى الخلـف لـئلا تصير عموداً من الملح. ولم تبارح مكانها لتنظر في حـال أبيهـا بعـدما غادر الضـيوف، حتـى تلاشـى وخـز هديـة المعنـون مـن أذنيهـا حتـى العـدم، رغـم تمنـع سـم طلبـه علـى الانحـلال في فـورة دمهـا، أو مغادرته، تحت ضغط انتظارها القلق لموعد الجولة الأخرى.

طوقت آكيتيا عنق أبيها بيديها المرتجفتين، ورمت رأسـها علـى كتـف العجوز، مخالسة حنان عينيه بشعرها الذهبي، ودمعها يغسل حرقـة عينيها، ويترقرق علـى نعومـة وجههـا الشـفاف، مـا ء يغسـل صـفاء صفحته بنقاء الماء.

دائماً كنت أخاف تلك اللحظة يا أبي، عندما أصير هماً مضافاً إلى همومك بدل أن أكون عوناً لك. تعلقت بجرأتك منذ الصغر، ولم أعرف أن لجرأة المرأة خارج عتبة الباب اسماً آخر في ضمائرنا، وصفات أخرى، أقلها عاهرة.

هوني عليك يا آكيتيا: ما كنت يوماً هماً علي، بل هماً لي، واليوم أحب همي أكثر. ربما لم نخرج بعد من عصر الحريم، لكنني لن أعود إلى عصر وأد البنات المقنع أو الصريح، على اختلاف أشكاله: وأد الجسد، أو وأد الروح، أو وأد الاسم.

ربما كنت في حاجة إلى هذه العزلة في هذا الخلاء المرِّ حتى استطيع أن أفكر وحدي، ولعل طاغور الحكيم قد عرف الفراغ في الثمانين، فصار بمقدوره أن يفكر وحده.

لا تخافي يا ابنتي من حلم ذي الكرش الكبير، ولا من حلم رفيقه الصافي ذي الشعر الخشن، فلم يتعلم أي منهما بعد أن يفكر وحده. أستطيع أن أرى ساحة العراك بين حلميهما بصفاء كامل. فهذا يريدك محظية، وذاك يريدك سبية، وهذا لن يسمح لذاك أن يسبي محظيته، والآخر لن يسمح له أن يحظى بسبيته.

لماذا لا نفكر في الهرب وترك الغبيرة يا أبي؟ فلنعد إلى الشمال، أو إلى الغرب، أخاف أن أحمل الذل لشيبتك، وأجر على مرارة عمرك المزيد من التعب.

هنا يا آكيتيا مآل الشمال ومآل الغرب، وربما يأتون إلينا قبل أن نذهب إليهم، هنا الوطن يا ابنتي وهناك الوطن، لكن الوطن هناك عاهرة شاخت، وهنا الوطن أرملة، وإني أخاف أن يخيم شبح سدوم وعمورة على أرض بابل وآرام دمشق.

ما سكن الإنسان أرضاً يا ابنتي إلا صارت وطناً، في حدود المكان أو في أثير الروح، وما هجر الإنسان وطناً إلا ونازعه الحنين إليه، أما إذا هاجر الوطن من روح المواطن، فماذا سيبقى غير جمهرة العبيد وشبح الدولة.

أمس يا آكيتيا نازعنا الحنين إلى أرض الميعاد، وأرض الحلم النازف من صور الرهاب الهارب من معنى الحرية، وحرثنا أجساد نسائنا بمعازق السماء وعنف إثارتنا، قمصاناً للفداء، ومحارق للتضحية. فصرنا عبيداً للعبيد، ولقطاء لخطل النواميس الزانية بغياب وجه الله الساكن في أوجاع أرواحنا أبداً.

أمس حفظنا تاريخ السبي البابلي عن ظهر قلب، مفتاحاً للزهو بمجد حضارتنا الزائف، واليوم نحتفظ بمفاتيح البيوت للهرب من حقيقة وجودنا المر، وأبواباً من حنين يماحك زيف الماضي.

أمس كتب الإنسان تاريخه بأساطير الخطاة، دينا للمعرفة، وشوقاً للخلود، واليوم يُكتب التاريخ بسواطير الدين، أساطير التوبة، وشوقاً لخلاص يتنكر في إهاب الموت.

لن أذهب يا آكيتيا إلى أي مكان، ولن أبارح هذا القبر حياً، أما أنت فلك الخيار في أن تبقي، أو تذهبي، أينما شئتِ ومتى شئتِ، ويمكن أن تكون حياتك أفضل في أرض غير هذه الأرض، فلا تأخذك العاطفة، ولا تربطي أحلامك بقدري.

أجل، سأبقى هنا، أريد أن أخطئ على طريقتي ولو مرة، ولعلي أرى نفسي هنا في مركز عاصفة الخلاص، إلهاً للريح، أسلطها غيماً من الحب الهطول على جفاف الكون، ولا أضمر التوبة.

❖❖❖

بدأ غليان جبهة آدم المنسي يهجع رويداً رويداً تحت صبيب الماء على رأسه وعلى جسده، وفي أحشائه المشتعلة بجفاف الحلم. وبدأت عروق الحياة تستعيد تنفسها الهادئ تحت رطوبة الماء،

وجسده يرتعش بفرح العودة إلى الحياة، كأنه يرقص (الباكيّه) في عيد نيروز آكيتيا، ويشم من عطر نجواها نسيم الروح.

ناداه صوت صاحبه المتمدد في نقيعة قرب عين الماء: اخلع ثيابك أيها الشاب، ودع الشمس تجففها قبل أن تكمل ارتحالها في جنون السماء، انشرها على حبل المغيب، وتعال نغسل أرواحنا من تعب الطريق وغبار السفر.

رفع آدم المنسي رأسه باتجاه الصوت، فغشّا عينيه الماء المتساقط من خصلات شعره، وبدا له الرجل كأنه يسبح في السراب، ولم تثر لكنة الصوت في أذنيه عقدة الهوية.

كرر الدليل الجديد نداءه لصاحبه: تعال اغتسل، فالماء هو الماء قبل أن تتناسل الصفات، وهو الحياة وإن كان عكراً.

جلس آدم المنسي قبالة الرجل الذي فقد صفة التاجر، ما أن غاب ظله في الماء، وفقد صفات أخرى. تكور يخفي سر جوزته المدلاة في باطن سرواله حتى ملتقى فخذيه، ويخفي شروده بدوار الشمس الذي استحال بذوراً مثلثة الوجوه تنخر قبة رأسه بأشواك السؤال، وتعري عقله الساخن من قشور الأجوبة.

أيكون لجلود القرابين المحبوكة بخيوط الحفيظة يا "أحيقار" العرش الحكيم قيماً مضافة تفوق ضرورة الستر والتقية؟ أيكون لبنات الفصول حينما تشرب البهجة من قوس قزح وترقص على أجساد الجميلات، رسالات أخرى، غير رسالة النشوة وخفقان القلب في طلب التجدد؟ وأي رسالة للماء؟ حينما يرسم صور العشق مرايا تتناثر بين الشفافية والجسد، وحينما ينتح المارج من مسام النعومة، ويشتعل على منحنيات الإغراء أجنة ماس تختلج في حمى التشكل.

هل خجل الإنسان من جرأة سؤاله حين تعرى الكون، وما زال يطلب الصفح عن خطيئته الأولى، ويهرب متنكراً في جلد جديد في كل عيد؟

أتكون علة التوجس بيني وبين شريك هذا الخلاء البدئي نائمة هناك، في باطن جلده المرمي بين آخر الماء وأول الرمل؟!

أمس أصابته عثرة الأرض فأنقذته، واليوم أصابتني عثرة السماء فأنقذني، ولم تزل روح العداوة تضرب على وتر التوجس بيننا، وتلعب (الغميضة) مع أرواحنا في جيوب الثياب. وما إن جلسنا نحل جلودنا في منقوع تشكلها، حتى تزول! لكأن عثة العداوة تعشش في جيوب الثياب.

أين تعشش العداوة يا "أحيقار"، يا سيد الحكمة البهية وحافظ أسرار العرش، في جيب القلب أم في جيب الجبة؟

في سر حياتك المحكومة بالموت؟ أم في خلود هيبتك الحكيمة في النسل، أم في وجع العنة؟ قالها آدم المنسي ورأسه الواهن يصحو من دوار الرمل والشمس ليغيب في دوار الماء.

طاف آدم برأسه المخدور في كل البحور، صارت عيناه مراكب تائهة في غمر الغامض الكحلي، وقلبه شراع من نسيج الذكريات المعرّقة بأحافير النسيان، ترجه رياح العمق، ثم تلبسه، ثم ترميه على السطح دوائر، وتذوب في لجج الألوان.

أين أنت الآن يا "أحيقار"؟ أين أنت الآن يا أبي؟ أين تعشش العداوة يا أبي؟ في دم القصيدة أم في جلود الشعراء؟ في علة القوافي وشرايين الكلام، أم في أوتار النثر ودم التفعيلة؟

مرة أخرى تراخى جسد آدم المنسي يغسل خطيئة دمه الفائر في عكر الماء، وفي صور العشق وملاحم التاريخ وأسماء الآلهة الكبرى ومرايا الوجوه، وفي تفاصيل جسد آكيتيا الممتلئ كجسد "أفروديت"، وفي جرار الماء.

هل كان في نيّة الصلصال المحكوم على ماء تشكله بالموت في لجج اللهيب وألسنة النار، أن يكف عن كونه جلداً للماء؟

لعله كان يضمر في علة طبائعه الكريمة أن يصير جسداً.

أو لعله كان يضمر إحراق الصفات الثقيلة عن كاهل ذاته، ويصير إلهاً ينفخ الروح في ماء العنب.

لعله كان مثلي يا "أحيقار"، لعله كان يُحبُّ يا أبي؟ فعانق حمى اللهيب بتلهفٍ، ومضى يجفف عجينته رقماً للذكريات، كما أجفف عجينة جسدي الحي في جور هاجرة العرب القدماء، ورقاً يحمل اسماّ وصورة بلا حياة، في جواز سفر.

أكان للحدود كل هذه الكتامة يا "أحيقار" يوم كان الجسد الحي وحده راحلة السفر؟ وأي مطية كانت للرسائل؟

أي رموز كانت للحب في لغتك البكر يا أبي، غير القلب والنحر وملتقى النهدين، وجرار النبيذ ومثلث الخصب وخمر الشفاه؟

وأي رموز صارت للموت يا أبي، غير مطعن القلب ونحر الرقبة وشق الصدر، ونزع الحياة، وقطع وريد النبيذ، وكمّ الشفاه الأثيمة، وقطع لسان الكلام؟!

هل كان في ظاهر الجلد يا أبي، جيوباً لمكمن العداوة بين الإنسان والإنسان؟

شقت تنهيدة آدم المنسي وهو يغوص في عكر الماء الضحل، تعاريج الصمت الفاصل بينه وبين شريكه المتعلق بحمرة ما قبل المغيب في صدر الأفق، يسائلها عن أسرار الغياب، وعن كهف الكنوز، ومآل الرحلة، كأنه في طقس من هذيان السحر السري، وأجفلت شياطين أسحاره خيالاتُ الرفقة.

كيف أنت الآن يا آدم؟ عسى أن تكون قد تعافيت من ضربة الشمس ودوار الرأس؟ قالها الرجل وهو يسحب جلده الأبيض المحمر من وهج الشمس، من خضاب الماء، ويفتق شرنقة السهو عن مضغة أحاسيسه الوليدة.

انتفضت مدارك آدم المنسي على عجل من وقع الصوت، واستنهض السؤال المتخفف من بزة تصنعه الرسمي، ذات الإنسان العارية، في داخله المعشوشب بفطرة التشابه الطفولي بين الذات والذات. ودرجت الكلمات على لسانه ناهدة الود، كأنها تنبع من مسام الأنوثة البكر في عذارى اللغات. شكراً لاهتمامك يا سيدي،

اعتقد أني صرت الآن أحسن. قالها آدم المنسي ناسياً شرف اللغة وجرح الهوية .

لكن يا رفيق الشقاء، ماذا بعد؟ أمس تعثرت بناتئ الطريق، فحملتني، ولم تسألني ماذا بعد، وكان بإمكانك فسخ العقد بيننا من غير لوم، أو حتى تركي هناك على مشارف الصحراء، بين الحقيقة العارية ووهم التفاصيل، وعندما ملأ الغبار عينيك رمداً من محلول ماهيته بظلمة النظر، وضاقت في صدرك الأنفاس، قلت ليس بعد. والآن أيها الشاب، وبعد أن أعاد الماء لروحينا هدأة الحياة، ولأحلامنا مرونة الجسد، وبرئت من دوار السماء، ودوار الأسماء، هل تولد بيننا لغة للاشتراك في الحلم؟

رد آدم المنسي بهدوء هذه المرة، وهو يخفي توجس أن تكون عثة العداوة لا تسكن في ظاهر الجلد، إنما في مجاهل القلب: ليس بعد يا شريك هذا الخلاء، ليس بعد، لا يستطيع رجلان يقتسمان الفراغ أن يتساكنا فيحولان السكون سُكنى، وإن طفر عن حدود سواقيه الماء. ولا تنبت على تنافر طيفي روحيهما سكنات الحروف، ولا تتأرجح بينهما سرائر الكلام.

حسبي وإياك يا سيدي أن نخرّم هذا الفراغ بحروف العلة، ونحرق جسدينا بالعنف، وأن نشعل ألف حرب، ولو من أجل ما تبقى لدينا من المتاع، أو من أجل بغلة.

لا لغة بيننا بعد يا سيدي، ما بيننا وجع من التباس الكون في عمق الدخيلة، وزفر من احتراق الشوق لكمال ذواتنا على عي اللسان، اللغة يا سيدي روح، تنهنه التاريخ على صدر اللحظة الأنثى، وسَفَر الأسماء على خيط قلادتها الوهاج ما بين المؤوَّل والأصل. واللغة يا سيدي، نبتة المدن الجميلة على شفاه الماء ما بين الأنثى والرجل. اللغة يا سيدي، أنثى تتقن فنون الوصال وتظل حيية. ترقص على أنغامها روح الحقول سنابل قمح، فيتعرى الكون من جلود العداوة والخوف، وتموت الغرائز بالتخمة، ويستريح "الكاتب العدل" من تدبيج الرسائل وصكوك التوبة.

أيأخذ حبها قلبك إلى هذا الحد يا آدم؟ أتغامر بحياتك في هذا الرمل من أجلها، وماذا ستقدم لها هدية؟ لعلك تبحث في خريف هذا الرمل عن باقة ورد ندية! أو ربما عن قلادة بلقيس المفقودة على طريق القوافل؟!

أحبها نعم، لكني لا أغامر من أجلها فقط، فما أن تعرف الحب حتى تغامر من أجل الجميع. ولا منة للواهب فيما يعطي، فحقه مصفى أولاً في إشباع رغبة العطاء وإثبات الوجود. أما أنا فلا أبحث عن كنوز دفينة وثروة قديمة، ولا أفتش في ظلال الرمل عن مسكن الرب، إنما طمعت بجواز السفر.

وماذا يعني لك جواز السفر يا آدم؟

همزة وصل ما بين الحدود، تثير باختفائها الريبة، والتباس الحضور بالغياب.

أيستحق منك هذا الثمن كله يا آدم؟ أما له في نفسك معانٍ أخرى، أو مآرب أخرى؟

بلى، جنون آخر كجنون الآخرين، وطلب لحرية الموت في شوارع مدن أخرى لا تُنبش فيها الجثة لتصلب من جديد. وألم جرح قديمٍ تصعّد حتى صار له معاني في غاية الجنون. مثلما تعني لك هذه الرحلة وكهف الكنوز أيها الشريك، ومثلما تعني القدس لليهود والعرب.

أتريد الهجرة أيها الدليل؟

نعم، كلما ضاق بي المكان. لكني أريدها هجرة فقط، عارية من كل جلودها القديمة، ومن كل نوازع الحنين في وبر أسفارها، ومن كل الصفات.

لكن ما دمت تريد الهجرة، وطمعت بجواز السفر، فلماذا غيرت اسمك يا آدم؟

لأنك غيرت مهنتك.

لكن الأمر لا يتعدى في نظري تغيراً بسيطاً في شروط العمل لتيسير البحث عما نسميه الكنوز القديمة وإرث الحضارات. وأنت تعرف مبرر ذلك، فكم من شخص قضى في غياهب هذا الرمل من أجل تلك الغاية!

وأنا أردت أن أقتسم معك السوق، والأمر عندي لا يتعدى تعديلاً بسيطاً تقبله اللغات، فجل أسمائنا ما زالت تمتح من خيال العهد القديم، وكثيرون منا ما زالوا يعيشون بلا أسماء.

وعلى كل الجهات فلن يكتب التاريخ اسمي بجانب اسمك، حتى ولو مسحت أرض الحويلة كلها وحدود جنة عدن، ووجدت كهف الكنوز على حاله، وثلاث هدايا الرب موزعة في رطوبة المكان على

هيبتها القديمة، وتينة القسم. وكم دليل مثلي قضى على طريق غايتك السامية، وترك عظامه شاهدة قبره تحت "صليب" التاريخ.

وما شأن ذاك الثعلب حمزة الرفّاد الذي وقع بيننا العقد إذن، وما هو عمله؟وما معنى قوله، إذا لم تجد كنزاً هناك سنعطيك كنزاً من هنا، لدينا كل ما تبحث عنه من كنوز، وكل ما لم تفكر فيه بعد.

لعله يحتفظ بجثمان هابيل وهدايا الرب، أو بثروة موسى المنهوبة من فراعنة مصر، رد آدم المنسي متهكماً، ثم أضاف: حمزة الرفاد تاجر هو الآخر في سوق التجارة الحرة، أو كما يسميها هو، فن "الخلاص الجمركي".

لم أفهم شيئاً مما قلت، رد الرجل وقد بهت في عينيه بريق السؤال، وبريق الكنوز التي جاء في طلبها.

معك حق يا سيدي، للخلاص في بلادي معانٍ أخرى، أقلها عبور الحدود من المدن الأمنية إلى المدن الآمنة، وحمزة، تاجر مثل الكثيرين غيره، يستغل نفوذ أبيه للمتاجرة بخلاص البشر، يعني نخاسة حديثة، لا تلزم العبد بملازمة سيده لتقديم فروض الطاعة،

إنما تطلقه خلف الحدود وتتحكم بمصائره عن بعد، مثل أعمال الجاسوسية، المهم أن تجنى الفائدة.

وتلك الجميلة التي تركتها هناك معلقة بخيوط الانتظار وسراب الأمل، من تكون؟

روح أخرى يا سيدي، تنتظر الخلاص على مسارب الأمل، وتجدل أوجاع هذا العالم على ضفائرها الشقراء، رسائل حب. وإن عدت سأبني وإياها في فراغ هذا الوجود، كهفاً جديداً للحياة . وربما تعود في حلة أخرى لتكتشف كنوزنا الجميلة، وآثار أول لغات العشق.

أذهلتني أيها العاشق، ولكن، ماذا بعد؟

لا عقد بيننا منذ اللحظة يا شريك هذا الماء وهذا الرمل، فالعهد القديم لا يلزمني بعودتك حياً، ما أن أتنازل عن بقية الأجر، ولا أخفيك سراً أني منذ البدء قد تنازلت.

ولماذا لم تعد منذ أن تعثرت رحلتنا في أول الطريق إذن؟

ربما أردت أن أشبع رغبتي في العطاء، أو في التجربة.

والآن أيها الدليل: كيف ستكون وجهتنا؟

سبق وقلت لك أيها الشريك، منذ نزعنا "جلودنا" عنا، واغتسلنا في هذا الماء، لم يعد بيننا لا عداوة ولا عقد، ولكل منا الآن الحق في أن يختار طريق الخلاص لنفسه، والاتجاه الذي يراه مناسباً له، لكن شروط شراكتنا الجديدة تفرض علينا تبادل المنفعة وتقاسم الخطر. فأنا من جهتي لا أرى سوى طريق واحد للخلاص، هو أن نعود إلى الأمام، ما دامت الطرق القديمة تنتهي بنا إلى الرمل، والطرق الأخرى من موقعنا الجديد، تبدأ من قلب هذا الرمل.

لا اعتراض لدي يا شريك على كل ما قلت، لكني لا أفهم ما معنى أن نعود إلى الأمام.

أعتقد أنه مضى زمن طويل علينا ونحن نتقدم، والآن فقط أدركت أننا كنا نسير إلى الخلف، أو لم نسر أبداً. لذلك قلت يجب أن نعود إلى الأمام. لأنه وحده وجهتنا الممكنة، والأمر ليس أكثر من رياضة بسيطة على هذا النحو: مادمنا شركاء في حاصل الطريق، وكل منا يسير بعكس الآخر، فحاصل مسيرتنا يقع دائماً في نقطة الانطلاق أو ما حولها، وإن كنا نسير في الاتجاه نفسه، فحاصل الطريق يكون دائماً معنا، وفي الفراغ نفسه الذي نشغله في تلك اللحظة.

واللغة أيها الشاب، ما مصير اللغة؟

لا تشغل بالك كثيراً بها ، فما أن نصل إلى نجع مأهول حتى يفيض الكون باللغات. أما الآن فها هي الشمس تخفي وجهها عنا ، فدعنا نعود لارتداء "جلودنا" ، إذا وافقت ، علها تكون قد برئت من وحشة أرواحنا السابقة ، ولنتدبر مأمناً نبيت به حتى قبيل الصبح ، قريباً من وحشة الماء.

نهض آدم المنسي وشريكه ذو الأنف الدقيق الرأس بتثاقل من عكر الماء الدافئ لارتداء ثيابهما المنشورة على خيط الشمس الأخير، والذهاب في متسع آمن من الأرض لتلحف العراء.

التفت الشريك إلى الخيط المعقود في سروال آدم المنسي ، المتعشق بجسده تعشق الرمل للماء : أتخفي سلاحاً في هذا الموضع يا آدم؟ ألم تقل منذ البدء أن لا سلاح في الرحلة ، وأن السلاح الذي في يديك قد يصير في يد خصمك؟ وقد يخسر الإنسان حياته ثمناً لسلاح لن يستخدمه ولو بدافع طمع الآخر في امتلاكه ، حتى لو لم يكن يضمر العداوة؟

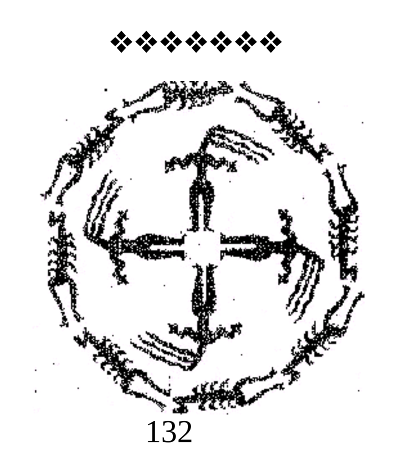
ارتبكت خطوات آدم المنسي على تخوم الجلد الفاصل بين الأنس والوحشة ، وتزاحمت الحروف على ظاهر لسانه من غير اتساق ،

أجل .. لا .. سبق الإيجاب النفي في منطق تكوين الفكر في رأس آدم، كأنه يطابق حقيقة الكون في تلك اللحظة المتجردة من روح الزمان، أما على لسانه المتلعثم بثقل الزمن الظاهر، وزحمة الحروف، فأتلف الإيجاب والنفي في رطوبة نَفَسٍ واحد.

أخذ نَفَساً آخر من رطوبة الكون ثم قال: كنت أعرف أني واقع لا محالة في مرمى السؤال، مهما تماديت في ميوعة اللحظة. ليس سلاحاً حقيقياً أيها الشريك، لكنه ربما كان سلاحاً أو ما يشبه السلاح، وتلك ليست المرة الأولى التي أقع فيها في شرك هذا السلاح، فمرة ضبطت في مخفر الحدود كمهرب للآثار الوطنية إلى الخارج ونجوت بأعجوبة، ربما بالتأثير السحري لهذا السلاح. ومرة ضبطت كجاسوس يحمل جهازاً مشبوهاً، ورشوت الشرطي بكل ما أحمل من نقود. وبعدما أفرغت جيوبي أمامه طلبت منه أجرة الطريق إلى البيت فرفض. لكني سأطلعك على سر هذا السلاح ولمَ نقلته من موقعه القديم إلى هذا المكان. انظر ملياً في ما أسميته سلاحاً ودعنا نلم رحالنا قبل أن يجن الليل، وسأحكي لك فيما بعد قصته الكاملة. أنهى آدم المنسي كلامه وهو يسحب جوزته من خيطها المغزول من وبر القرابين، ويكشف قشرتها لتلتمع في قلبها خرزة

العقيق الأحمر المشتعل كقرص الشمس في تلك اللحظة من عمر الكون. وتلمع عينا شريكه، عالم الآثار، والمتخصص في علم اللغات القديمة، والذي يعرف الـ (آكيتو) و(المندالا والسواستيكا) بأشكالها المتعددة، لكن الدهشة أخذته لما في تلك اللوحة من دقة الخطوط المحفورة على صلابة ذلك النوع من الحجر الكريم، فلم يستطع أن يخفي نشوته الحقيقية ولا دهشته، وراح يدور في جهة شعر الآلهة المنثال على صليب الجهات يرسم بنَفَس الريح الخفية مدارات الروح، ويرقص فاتحاً ذراعيه، كأن بابل تخرج من تحت ركام السنين صبية سمراء تشاركه رقصة الربيع في ليلة العيد. عيد (آكيتي) القديم، وعيد النوار ينشر العطر رسائل عشق، تفوح بالخصب المعتق من أحضان الربيع.

❖❖❖❖❖❖❖



الفصل الرابع

أسفار منسية

أوت آكيتيا إلى شرفة مناجاتها المعهودة باكراً بقلب منقبض وغصة مُرة، تتأرجح في صدرها من أسفل القلب حتى نحر الرقبة، وترنح آدم العجوز بجسده الهزيل في معتزل أسراره، موحياً لفراشه المقشوشب بمهاميز الأسماء الملاحقة في الحلم وفي الصحو، أنه سينام.

بثت آكيتيا شكواها على أشرعة الريح، وتنهدت بأنفاس خريفية كأنها شهقات الموت: لمَ كل هذه العداوة يا أبا نزار؟ أمس قلت لسمعان قبل أن تشم رائحة الدم، أن يدك مطهرة من دم الأخوة أبناء الوطن، وأن قتالهم هناك فتنة وليس جهاداً، وقال سمعان لأبي على مسمعي ذاك اليوم: مقدر موقف الرجل، وكبير هذا الكلام، وإن قاله في أذني همساً، فكلنا نعرف العاقبة.

هل صبأت عن دينك يا أبا نزار؟ فحلّلت اليوم سبي نساء المؤمنين؟

هل كنت متجرداً آنذاك من بزتك ذات الأزرار النحاسية الصفراء، أم أن صحوة الإنسان فيك كانت مؤقتة على قدر فعل خمرة سمعان.

ومن أي دم يغرف قلب رفيقك الخشن كل هذا الحقد الأسود؟ وبأي نواميس يبرر غايته، وعلى شرعة أي إله؟



حط الركب الهارب من وحشة الماء رحاله في باطن جرف مهجور، بعد مسير ساعة وبعض الساعة، بعكس نية الشمس في تلك الشهقة من عمر الكون. لم يتسنَ للرجلين أن يتبينا في عتمة الليل تفاصيله الكاملة، ولم يتح الخدر المتبقي في جسديهما من أثر الانتقاع الطويل بالماء الدافئ، وانشغال ذهنيهما في مآل الرحلة وشجون الحديث عن هدية آكيتيا المغلفة (بجوزة)آدم المنسي، غير خيار الارتماء. وحالت ظلمة الليل دون اكتمال مرامي الفضول المرتسم في نهم عيونهم، لتلمس شفاه الأحافير، أو باطن أفلاجها الغامض، على رهبة ذاك الجسد الصامت منذ صنعته الريح بألسنة شوقها الكفيف، تمثالاً للزمان.

تلجلج السؤال على لسان آدم المنسي، ولفته انشغال شريكه المخفي عن محطات الحديث، محاولاً تلمس ما يسمح به الليل من تفاصيل المكان. ثم عدَّل من وجهة السؤال: أتشعر بالخوف أيها الشريك، أم تراك مللت من حديث الشجون؟

لا يا آدم أنا أسمعك، لكنه عقل الإنسان، عجباً كيف لا يرضى العقل أحياناً إلا بجسد الحقيقة كاملاً، ويرضى في لحظة أخرى بحقيقة بلا جسد ولا سند! قالها الرجل وهو يعيد كتابه المصفر الورق إلى جرابه، ويعدل عن نيته المخفية، فربما أراد أن يشعل ورقاً يستجلي بنوره سطحاً أكبر من جسد الحقيقة النائمة في حضن الجرف، أو يقرأ شيئاً يريح هاجس عقله، في دليله المصفر الورق. ثم تراجع عن نيَّته فأشعل التبغ نصف المتفحم في حنجرة غليونه، وشد رباطاً وهمياً بين جسده وأرض المكان.

أجل أيها الشريك هكذا عرفتها، تابع آدم حديثه: كنا توأمين من اليتم أو ما يشبه اليتم، وضفتي جرح في روح المدينة، يمر الزمن ولا يلتئمان. في البدء أحببتها مثل كل صبي نتأت ملامح الرجولة على تفاصيل جسده المفعم بغرائز البقاء، وارتسمت في خيالات خلوته

منحنيات الإغراء المتكور على جسد الجارة المجايلة. وكنت غريباً وهي غريبة، في حواضر مدن جل أبنائها غرباء يسكنهم وهم الحنين لأرض ربما كانت وطناً، وصارت رمزاً تضخم على صلبان عقولهم، حتى تنحل الأحلام الخارجة عن ركاب النواميس في سواقي الحياة.

كبرتْ قبلي على اللعب في مدخل الحارة، وبراءة الحواديث على عيون البيوت نصف المغمضة برموش الستائر، ونصف المفتوحة على صور العابرين والضيوف. وأنا كبرت، وكبرتْ معنا أسماء كثيرة، واكتسبت مرامي الكلام معاني جديدة في لغتينا على السواء، لكنها ظلت متشابهة.

كنا نتسامر بلغتها أو بلغتي، أو بلغة وليدة من تلاقح اللغتين، كبرت معنا هي الأخرى من دون أن ندري. وكانت دلالة الحروف ترتسم على رفيف العيون وشهقة النفس وانثناءات الجسد، قبل أن تنحل على ارتجاف اللسان. أتعرف أيها الشريك، لم أفكر حينها ما معنى أن يكون للإنسان لغة أو لا يكون، ومحيطي الضيق كذلك. أمها فقط كانت تلفت للفرق أو أوجه الشبه بين اللغات، وهي

تترجم لنا بعض الرموز من لغة تفخر بعراقة أصلها، ولم نعر لـذلك حينها الكثير من الانتباه.

أمها الحزينة لم تنجب غيرها، وأمي التي ودعت مدينتها باكراً إلى وجهة غير معروفة على وجه اليقين، لم تنجب غيري كذلك. ليس من علة في الخلق، بل لأن "دنس" الخصوبة لم يدانهما منذ غاب زوجاهما في ذمة التاريخ، وغابت آهات وحدتيهما الليلية ووحشة روحيهما في ذمة الله.

منذ غادرت أمي دنياها بقيت وحيداً، أدور في فراغ البيت فلا ألم ينتهي، ولا أمل منتظر، وحده طيفها الفتان كان يبرق في فراغ الكون حولي، ويضيء في عتمة أيامي كل الصور. أنهيت دراستي في كلّية التاريخ ولم أعثر على تاريخ بلدي، ومُنعت من إكمال دراستي العليا لدواع أمنية، موروثة من صفات أبي الذي غادر مدينته طريداً، فلا وصل إلى غيرها ،ولا عاد، ولا مات على الحدود، كما حُرمتْ هي من إكمال دراستها في كلّية الحقوق لسقوط الجنسية عنها، بالوراثة أيضاً. ومُنعنا كلانا من الحصول على جواز السفر وفرصة كسب العيش. ومنذ أهدتني هدية حبها تلك وعلقتّها في عنقي وغادرتْ أيها الشريك، وأنا أدور في الفراغ،

وتتقاذفني الأقدار من حمزة الرفاد إلى حمزة الرفاد .. إلى طريق رحلتك، تائهاً صقلته التجارب في التيه حتى صار دليلاً، ولم أحمل معي غير صورة طيفها، وهدية حبها، وذكرياتي وقصة "أحيقار".

هل تعرف يا "أحيقار" ما معنى أن يكون الإنسان بلا تاريخ؟ وما معنى أن يكون له لغة أو لا يكون؟ وما معنى أن يكون محكوماً بالموت ومحكوماً بالحياة، وأن يكون موجوداً وغير موجود؟ من المؤكد أنك تعرف يا أخا الكرم وسيد الحكمة، فبكم سفر من الأمثال طرزت لحيتك البيضاء وأنت تتكور في نخاريب الأرض، ورطوبة التراب تنخر عظامك، و"نادان" ابنك اللقيط، يعربد في فاره قصورك، وينسج خيوط عرشه من شرايين العبيد وإليات الجواري. ستون امرأة يا سيد الحكمة، ستون حلماً وستون خيبة، والستة في عرف لغتك عدد كامل، لم تنحل روح الرب في جسد أي منهن مضغة نبي. وحدها الغريبة يا "أحيقار" كانت تقتل حرارة خصوبتها بوجع الانتظار، ومن أحببتها يا سيد الأحلام كانت عاقراً.



قمر هزيل أضاء سماء الغبيرة قبل أن تتنكر لوعدها وتنقلب على هدوء الصباح، وشرارة برق شهباء تكسرت في الأفق البعيد مخفية صوتها في جلد الليل البهيم، تداخلت مع أشباهها من برق تنكر في جلود الأسلاك. وأطلق خشخشة أصواته تعربد في تجاويف أذنيه، وتزهق أنغام اللذة المكنونة من صوت تدللها الحبيس في بهويهما من حديث الصباح، وبرق الشرر المخالس لورق الصحيفة في عيني رفيقه الغريم يكمل الجوقة.

لم ينم ذو الكرش الكبير في ذاك المساء، ولم ينم رفيقة ذو الشعر الخشن، لأسباب مجهولة ومعروفة، حتى خراف الغبيرة لم تنم. وكلما استرق النظر إلى عينيه مخالسة، يبرق وجه آكيتيا على صليب الفراغ بين خرزتيهما القلقتين، ويبرق من ذاكرته المثقوبة وجه سمعان.

ستفعلها يا عدنان الصافي، ستفعلها. منذ اللحظة أرى في عينيك نية البحث في دهاليز الوصول عن أوراق اعتماد لجنسيتها المجهولة.

لست حديث العهد في تاريخ العسس الأسود يا عدنان، أنا ملك هذا التاريخ. وأعرف أين تختبئ المنافع في جلد الولاء الرمادي الوبر، وأعرف كيف تنتقل بين الولاء والولاء.

أعـرف نيتـك يـا عـدنان منـذ السـلة الأولى، ومـن مكيـدة سمعـان. وأعرف كم طلقة في جعبة مسدسـك الأعـوج، وكـم ضـحية. وسـر زيارتك المشبوهة لعدو الأمس، وما معنى أن تقول لذاك الذي يسـير بلا ظل، نحن اليوم في خندق واحد، ويجب أن نتقن العمل بأسـلحة الخصم، ونزايد على القضية بالقضية نفسها.

ماذا تعني لك القدس يا عدنان غير ما تعنيه لـي؟ ومـاذا تعـني لـك اللغـة المزنـرة بحبات سبّحتك القوميـة.؟ أمـا زلـت تظـن أن سمعـان "الصليبي" كان ينازعك على كنيسة القيامة ومفاتيح المدينـة القديمـة؟ وأن آدم الكـردي ينازعـك علـى ثـروة الـنفط، وشـرف اللغـة المعلـق على بكارة تلك الصبية؟!

ذات يـوم كـان آدم العجـوز مثلـك يـا عـدنان، خلـع هويتـه الحقيقيـة ولبس زيف الهوية، وأمضى سـحابة عمـره سـجيناً أو مبعـداً، منفيـاً من أرضه، أو منفياً في أرضه، وها هو الآن يسفح المتبقي مـن عمـره الحزين، يغتسل خمس مرات في اليوم الواحد عله يبرأ من جنابة إثمه القديم، ويعتذر من عقله، علك تبرأ من زيف الهوية.

أعرف غايتك يا عدنان، منذ أول (بـلاغ أول)، وأعـرف كـل رسـل التبليـغ، منـذ تنكـرت أول بـزة حـرب لشـرف مهنتهـا، وأعـرف مـا

تعرفه، أولا تعرفه من بلاغة الجرح، حين يكون دم الأطفال تجارة رابحة. أمس يا عدنان ضممته بكلتا يدي، والدمع ينال من هيبة رجولتي، يا نزار لا تذهب، نحن اخترعنا هذا الموت لغاية أخرى. فقال: افسح لي الطريق يا أبي، أنا ابن مدرستك، وحامل رايتك العلية، لا تحرمني من هذا الشرف ومن نعمة الشهادة. لا تأخذك العاطفة يا أبي، أعرف أنها العاطفة.

لسنا في وارد هذا الطريق يا نزار، ولم نكن، تلك بلاغة كلام يا بني ونحن الشعراء، ونعرف غرض القصيدة. لكن الوقت كان مبكراً على عقله المعلق بنبرة القافية يا عدنان ليعرف أغراض الشعر. هل تعرف غرض القصيدة يا عدنان ؟ ومن أين تُؤكل الكتف، أو يُؤكل العقل؟ أم أنك ما زلت مبهوراً بالبلاغة؟

لو كنت تعرف يا عدنان، لكنت سيدي الآن، وأنا خادمك المزيف الولاء أمام المغانم، أو لكففت عن حلمك. ولكن المهم يا عدنان، من أين ستدفع ثمن الوصول إلى غايتك "الشريفة"، من قربة دمك المزور؟ أم من قرب الآخرين؟!

❖❖❖

اعتدل التاجر في جلسته قليلاً، نزع نظارته المنزلقة على رأس أنفه الدقيق الرأس ما أن تيقن من وجودها النافل في عتمة الليل وغبش الرؤية. حاول النظر في وجه محدثه الذي غيبه الصمت في مجاهل المكان: هل زال الألم من رأسك يا آدم؟

أنا بخير أيها الشريك، ولم أكن أهذي كما تظن، كنت أحدثك استجابة لطلبك المتكرر، ولفتني أن في حركاتك حيرة أو خشية، فقلت في نفسي أحدثك وأبدد خشيتك. نحن يا شريك أبناء الشمس، وهي أمنا، ولا أظن أن عقاب الأم يضمر الثأر من جلد الولد. إنما يفتق السراب عن بصيرته، ومضغ الوهم عن رأسه التعب. أنا لم أكن أهذي أيها الشريك، ربما بحت بأفكار طافت على سطح ذاكرتي خلسة، وبسر ملّ جلوده القديمة وتعرى في فسحة المكان، فصار علناً.

لم أقصد الإساءة يا آدم، رد التاجر معتذراً: ربما شردت عن بعض الحديث بمشاغلي، وربما أخذ التعب مني مأخذاً، لكني كنت أسمعك، وأنا متشوق لسماع قصة "أحيقار". أرجو أن لا تثير غفلتي فيك الظنون، وأن لا تحرمني من سماع القصة كاملة، فأنا

حقيقة في شوق إلى ذلك. فعمر ليلتنا ما زال طويلاً ، ومنذ قديم الأزمان عرف الإنسان أن وحشة الليل يحرقها حديث السمر.

وأنا كذلك لم أقصد الإساءة أيها الشريك، وسأروي القصة كما كان يروق لتلك السيدة أن ترويها قبل أن تغطي ظلمة القبر وغبار الغبيرة صوت أشجانها، وقد يكون للقصة أوجه أخرى غير هذا الوجه. لكنه هكذا كان يحلو لها أن ترويها.

(تقول القصة* *أن "أحيقار" كان وزيراً ومستشاراً لملك أشور ونينوى "سنحاريب" ، وكان حكيماً عليماً ذا مال وفير ومعرفة ورأي وتدبير. تزوج "أحيقار" ستين امرأة ولم ينجب، وبقي بدون وريث يكرم شيبته ويرد التراب على عينيه بعد الموت. فكان كثير الهم والغم، استشار المنجّمين والعرّافين، فأشاروا عليه أن يذبح للآلهة ،*

---

*أوردت ملخص القصة كما عرضها الأب سهيل قاشا في كتابه (قصة"أحيقار").
وأهملت الكثير من التفاصيل التي وردت في الترجمة السريانية للنص، ولم أعرض قائمة الأمثال الطويلة، مما لا يتسع له المجال هنا.

ويقوم بأفعال خير، لكنه لم ينل مبتغاه. إلا أنه سمع صوت الإله يوماً يقول له: خذ "نادان" أبن أختك واجعله وريثاً لك، وعلمه علمك ولقنه حكمتك. فأخذ "نادان" ، وكان بعد رضيعاً، واعتنى بأمره. ولما شب علمه القراءة والكتابة والأدب والفلسفة والعلوم. وبعد سنوات كبر "أحيقار" وشاخ، فأشار عليه الملك أن يعين من يخلفه في منصبه. فأجابه أنّه اتخذ من ابن أخته ولداً، فأمره الملك بإحضاره. وعجب لأدبه وحكمته فوافق على تعيينه خلفاً "لأحيقار".

فأخذ خاله يبذل له النصح، ويطلعه على أسرار النجاح في مهمته، سارداً له تجاربه في الحياة، فالتجربة خير معلّم. وتنازل "أحيقار" عن وظيفته وثروته العظيمة من أموال وممتلكات وعبيد، ولم يحتفظ لنفسه إلا بشيء يسير دلالة على شدة محبته "لنادان".

وشاءت الأقدار أن يخّيب "نادان" آمال خاله ومربيه، فيضّيع الثروة ويتصرّف تصرفات طائشة بحيث يضع خاله وأهله عرضة لتقولات شتى، حتى اضطرّ "أحيقار" أن يعاقبه، ويسترد الميراث، مانحاً إياه إلى الأخ الأصغر. فيحقد "نادان" على خاله، ويضمر له العداوة ويدبر خطة للإيقاع به، فيلجأ إلى طريقة دنيئة، إذ يدس على

"أحيقار" خطابين موقعين باسمه: الأول موجه إلى ملك الفرس، والثاني إلى فرعون مصر، يظهر "أحيقار" في كليهما خائناً لوطنه وملكه، إذ يطلب من الملكين المجيء إلى بلاد آشور لكي يتسلما المملكة بغير حرب.

ويقع الخطابان في يدي الملك وفق الخطة المرسومة، ويزور "نادان" خطاباً ثالثاً موجهاً من قبل الملك "لأحيقار" يطلب إليه أن يجمع العساكر ويحضر إلى موقع معين، فيطيع "أحيقار" وتثبت التهمة عليه، ويتأكد الملك من خيانته، فيصدر أمراً بالقبض عليه وقطع رأسه. وتشاء المصادفة أن يكون "أحيقار" سبق وأنقذ الرجل الموكل إليه مهمة إعدامه على أثر مكيدة مماثلة، فيدبر هو وامرأة "أحيقار" أمر نجاته، وينفذ الحكم بأحد المساجين المحكوم عليهم بالإعدام، بينما يختبئ "أحيقار" في حفرة في حديقة الدار لا يعلم به أحد.

هل غلبك النعاس أيها الشريك، أتريد النوم أو الاستماع إلى القصة حتى آخرها؟

لست غافلاً يا آدم، إنما أسمعك بصمت وتمعن، فأكمل، أرجوك أن تكمل.

تمر السنون و"نادان" في مكان خاله مستشاراً للملك، لكنه غير متزن وضعيف الرأي، فيستغل "ترهاقا" فرعون مصر الفرصة لإحراج ملك آشور، فيبعث رسولاً يخيره بين أمرين: إما أن يرسل من يبني له قصراً في الهواء ويرد على أسئلته، فتدفع له مصر غلة ثلاث سنوات أو يعجز عن ذلك فيدفع الجزية لمصر.

ويجمع ملك آشور الحكماء والعلماء والعرافين ويعرض الأمر عليهم، فيقر الجميع بعجزهم، و"نادان" أشد عجزاً منهم. فيغتم الملك غماً شديداً، ويندم على قتل "أحيقار" الحكيم، ويطول حزنه حتى يمثل السياف بين يديه ويصرخ بأنه قد أبقى على حياة "أحيقار" اعترافاً له بالجميل. فيستدعيه الملك ويعرض عليه رسالة فرعون مصر.

فيعد "أحيقار" نسرين وغلامين وشريطين طويلين من القطن طول كل منهما ألف ذراع، ويربط النسرين بالشريطين، ويدرب الغلامين على الركوب على ظهر النسرين، ثم يطلقهما فيطيران في الجو على طول الشريط، فإذا وصلا الحد الأعلى صاح الغلامان: قدّموا لنا الحجارة والملاط لنبني القصر. فيخرج ملك مصر ومن معه فيروا استحالة تلبية طلب الغلامين، فيعترف "لأحيقار" بالنصر.

لكن الفرعون يشترط عليه قبل أن يقر له بالفوز أن يفتل له حبلاً من رمل النهر، فيثقب "أحيقار" ثقوباً في الجدار الشرقي وعندما تجتازها أشعة الشمس يذر الغبار أمامها، ويقول للملك هات من يقطع هذه الحبال وأنا أفتل لك غيرها. وتستمر الألغاز بين فرعون و"أحيقار" والأخير ظافر، فيعود إلى بلاده معززاً مكرماً، مثقلاً بالهدايا من غلال مصر، ويُجري له استقبال حافل كأنه منقذ البلاد. وينتقم من "نادان" فيربطه بسلاسل الحديد، ويلقيه في مكان مظلم ويؤنبه بكلام حكمة قاسية. حتى أن "نادان انتفخ وانفجر ميتاً).

هذه أيها الشريك قصة "أحيقار" التي حملتها معي من زمن طويل، أما أمثاله وحكمته فقد سبق وقلت لك الكثير منها، أما الباقي فما أن ينبلج ضوء النهار حتى تقرأها مترجمة في أسفار كتابك المصفر الورق. أما الآن فدعنا نسلم أوصال جسدينا التعبين للنوم، فربما ينتظرنا يوم حافل غداً.

أغلق الجرف حضنه البارد على روحي الرجلين برهبة الصمت وظلال العتمة، وتوسد رأساهما الخدران درج الوقت المحدودب من سفر عمره بين الغائر والناهد من جسد المكان.

نام آدم المنسي في ظلمة الكهف، لا صوت الرب يؤنس وحشته، ولا وجه آكيتيا البهي يبدد عتمة الليل عن وجه الزمان. ولا وجه "أحيقار" يخرج من ثنايا الذاكرة. فيما شريكه غارق في ذهول الصمت، يحل ألغاز كتابه العتيق في عيون الجرف بقلق يستعجل انبلاج شعاع الشمس الوليد من كوة الشرق المغرق في الغموض، ويكمل تكوين مرتسم الظل على صفحة الرمل الصفراء، ويعد يديه المتوثبتين لكشف الغطاء عن وجه هديته الملفوفة برمل الوجود وورق الألغاز الحذرة، بفرح الامتلاء. فمنذ ارتسمت ملامح الجرف في عينيه أول الليل عند وصولهما، واشتم بأنفه الدقيق الرأس رائحة فحم عالقة في أحافير المكان من نار غزوة قديمة، لم يستطع مقاومة ذاك الشعور الذي تغلغل في صدره من لحظة الوصول، كما يتغلغل اليقين في الشك، وكما يرتسم الجواب في غاية السؤال. فمنذ وصوله خامره شك يشبه اليقين أن ما تركه سابقه المجهول المصير من رموز وأرقام على كتابه المصفر الورق لا يمكن أن تكون إلا إشارة إلى هذا المكان. وأن كنز رحلته المجهول المصير مثل صاحبه الذي ضاع في لعنة الطريق ذاتها قبل سنين خلت، لا بد أن يكون موجوداً هنا. وما هي إلا بضع ساعات حتى

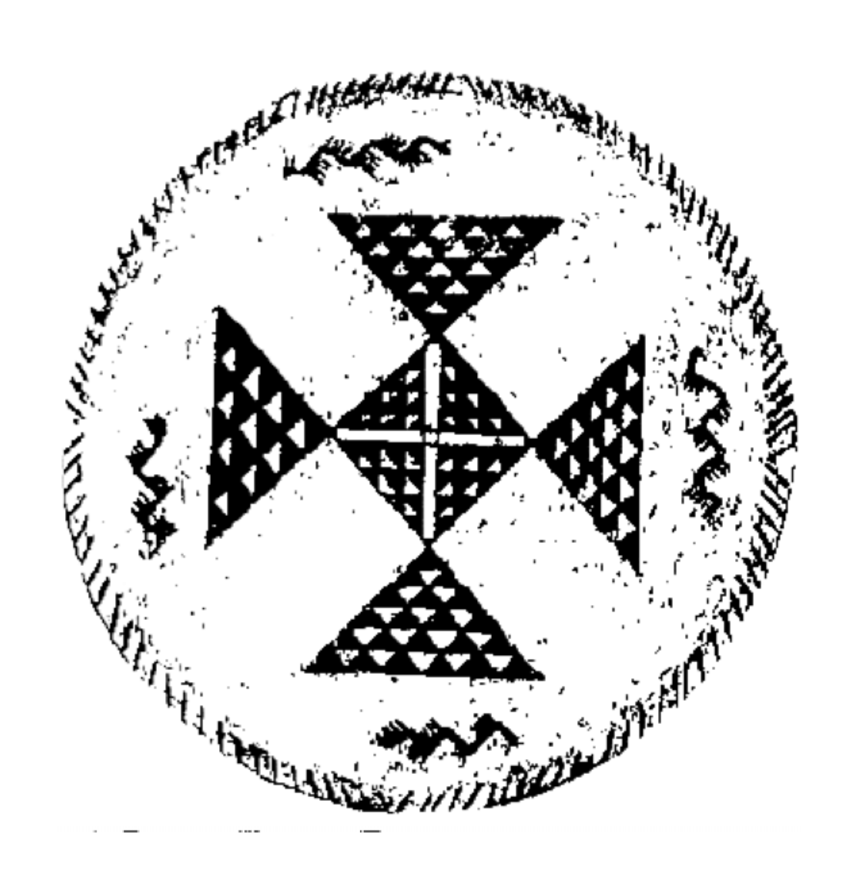
يخلع هذا الجرف حجاب العتمة عن هامته النخرة، ويرسم شعاع الشمس الأول مثلث ظله على بساط الرمل، ويشمّر هو عن ساعديه لينبش كنزه المدفون ما دام على شبه يقين أنه قد أفلح الليلة في حل ألغاز الرموز المنثورة على صفحات دليله المصفر الورق.

حاول النوم على قلق الانتظار فلم يستطع، فلا عيناه استكانتا لسيطرة النعاس، ولا فواصل الوقت في رأسه المحموم تطابق حقيقتها. وهاجس الشعاع الأول يدير وجهه صوب الشرق الغارق في ظلال العتمة، ينتظر انبلاج الجواب.

أسند يده اليمنى على رأسه وترك كمه الفضفاض يحتل مكان نظارته وينسدل على رأس أنفه الدقيق الرأس، وانتحلت عيناه صفة النائم، وضاع في صمت المكان .

وكان مساء وكان صباح يوم سادس.

****



الفصل الخامس

أسماء على صليب الذاكرة

لفحت نسمة صبح مطرزة بخيوط الضوء، وجه الرجلين السابحين في غشاوة الليل الأخيرة، وانسلّتْ تسحب عباءة الليل السوداء عن جسد الكون، وتمسح بماء رطوبتها الندية ظلال العتمة عن تفاصيل جسديهما المتلحفين بالعراء، وعن تفاصيل المكان.

ارتعشت أوصال التاجر من وخز البرد، وارتعشت عيناه المغمضتان على درن الوقت من تسلل شعاع الضوء إلى جفنيهما المخدرين بالسهر وملح الانتظار.

انتصب واقفاً على أصابع قدميه، وراح يتفرس في وجه الجرف بخفة كأنه يسابق الضوء على مسح قدر أوسع من سطحه المتغضن، ويشد يده بتوتر على كتابه الدليل، كأنه في خشية أن تفر الرموز من ثنايا سطوره السوداء، أو تتقافز من صفحاته الصفراء الباهتة، دوائر العلامات.

دار حول الجرف دورة أو ربما أكثر قبل أن تفرك الشمس الفتية عينيها من دغوشة الغياب، وقبل أن يكمل آدم المنسي تثاؤبه المسموع، ويفرك عينيه من آثار النوم، ويبادره بتحية الصباح.

ها أنت مستيقظ أيها الشريك ولم توقظني، لقد فاتنا بعض من الوقت المناسب للسفر، قالها آدم ما أن التقت عيناه بعيني شريكه مواجهة، كأنه يضمر في لهجته اعتذاراً من ملامح وجهه المفعمة بالشرود والانشغال.

ما معنى أن يقال (من أول صبح والرغبة تنام تحت الرأس القصي لظل الجسد) يا آدم؟: قالها التاجر مباشرة من دون أن يستوقفه الحديث عن النوم أو الوقت المناسب للسفر.

لست "أحيقار" أيها الشريك، ولا أظن أني وريثه. ربما بنيت قصوراً في الهواء بأحلامي من قبل، لكني على يقين أني لم أضمر الرغبة في غلة مصر، أو غيرها من الدول. أما زلت مبهوراً بحكمة "أحيقار" ولعبة الرموز يا رجل؟

أنا أسألك بجد يا آدم، ولك أن تغير ترتيب هذا القول على النحو الذي تريد، أنهى الرجل عبارته واستدار إلى الجهة الغربية من

الجرف الحجري المثلم من مداعبة الريح المرمّلة المشاعر، ومهّد الأرض الهشة تحته وجلس مترقّباً.

دُهش آدم من جدية الرجل في طرح السؤال في هذا الوقت المبكر من الصباح، لكنه تلكأ في البحث عن جواب بمستوى الجدية ذاتها. فأجاب بما يشبه الجد: إذا كان ظل الجسد متغيراً أيها الشريك، فهذا لا يعني أن الجسد يطول ويقصر. هل هذا هو ما تريد؟ أم أنك تريدني أن أقول مادام ظل الحقيقة القصي في الغرب فإن جسدها في الشرق. وهناك احتمالات كثيرة أخرى يمكن قولها إذا أردت، ولا بد أنك قلّبتها كلها من قبل.

تعال اجلس هنا يا آدم، قلت ما يكفي، فنحن الآن على تخوم الزمن الفاصل ما بين الحقيقة والرغبة. ربما كان "أحيقار" حكيماً في عصره، أو حكيم عصره، لكن الحكمة لا تقتصر على شخص ولا على عصر، فلكل عصر حكماؤه وحكمته، لكن الحكمة (مثل بومة "منيرفا" تأتي متأخرة دوماً) ولهذا ترانا مبهورين بأمثال الأقدمين لأننا نمتصها مع اللغة فتصير طقساً وعادة، وما أبطأ ما تتغير عادات الإنسان، فهي أبطأ حتى من تغيّر سمات الوجه. انظر يا آدم من ذخيرة أي حكيم بفلسفة الألغاز أتيت بسؤالي الذي

أدهشك: انظر إلى هذا الرسم الذي تركه "تاجر" مثلي قضى على الطريق نفسها ذات يوم، دليلاً إلى كنزه المجهول المصير مثله، حتى يأتي من يحل ألغازه وينقذه.

فتح كتابه على صفحة في الثلث الأول منه حوت في فراغ نصفها السفلي على رسم لأفعى مرقطة بمثلثات متداخلة بدوائر تتناوب بين الأبيض والأسود على الخط الطولي لسلسلة الظهر، وتلتف على العارضة الأفقية لصليب جهات تمتد جهة الدلالة الشرقية فيه أطول قليلاً من دلائل الجهات الأخرى، وتعقد ذيلها على ما يشبه كأساً يندلق منها الماء. وفي كل مثلث أبيض رقم يتوافق مع الرقم المتسلسل لأسفار الكتاب، وفي داخل صفحات السفر رسم مثلث يشابهه يحتوي بداخله الكلمة المرادة من السفر.

أرأيت يا آدم ماذا أراد أن يقول، فلو قارنت مثلثات الأرقام مع أشباهها من مثلثات الكلام لحصلت على تلك العبارة. وما هي إلا دقائق حتى أريك ما تعنيه العبارة.

دهش آدم المنسي من حنكة الرجل في حل الألغاز، وازداد ذهوله ذهولاً ممزوجاً بالخجل ما أن أفضى الرجل إليه بكل أسراره دون

خشية. أما هو فحتى الأمس كان ينظر إليه بعين التوجس والريبة، ويقتصر في الحديث معه، وينافح عن شرف هويته، وينظر إلى كتابه بعين الازدراء دونما علم بما يقرأ في أسفاره، ولا الغاية من حمله معه. ولعله قد أدرك الآن، أن التحرر من عقدة الهوية أصعب من البحث عن هوية بلا عقد. لذا فقد غرق في صمت الترقب إلى جانب شريكه منتظراً مفاجأته الجديدة.

خيم صمت ثقيل فوق الرجلين قبل أن ترفع الشمس طرحتها المطرزة ببخار اللجين العتيق، ليلمع وجهها الذهبي، ويمتد البريق الشفيف من أهدابها الشهباء ليغمر الكون، وترتاح النفوس من هواجسها المجدولة على قلق الانتظار، ومن تعب سفرها الممل ما بين الحقيقة والرغبة.

حان وقت العمل يا آدم، قالها الرجل وسار خفيفاً حتى ذروة ظل الجرف الذي رسمه شعاع الشمس الأول على الرمل. رسم حول الذروة دائرة بقطر ذراعين أو أكثر، وراح يزيح بيديه الناعمتين من جوفها أكوام الرمل.

❖❖❖

لم تطل وقفة آكيتيا في المكتب أكثر من بضع دقائق، هي الزمن الذي احتمله أبو نزار من الخجل الذي ينضح من وجهه عرقاً وهو ينظر إلى وقفتها الصامتة، تنتصب أمام عينيه كآلهة تفيض بكل اللغات. عودي إلى البيت أيتها الفتاة، سنتدبر الأمر مع أبيك فيما بعد. نطق السمين كلماته متلعثماً بحدبة كرشه، دون أن يجرؤ على رفع رأسه للنظر في عينيها المكهربتين بهيبة الحضور، وبدأت سطوة عرشه تذوب، وتتقوض أركانه، وهو يختلس النظر إلى رفيقه الصافي، يقرأ في تقلب ألوان الولاء تحت غلالة وجهه المعتم، بلاغاً أول لانقلاب جديد.

بدا الطريق أمام آكيتيا بين ساحة الغبيرة وشرفة أسرارها الجنوبية في فناء الدار، أطول من حقيقته، موحشاً وثقيلاً، كثقل الليل المحمل بملح الهواجس على جرح العجوز الملتهب بعفن الانتظار، وعقلها فارغ كصفحة بيضاء تغزوه ملَكات السؤال كظلال أخيلة ناقصة الحضور، ثم تغيب في فراغ التشكك المأسور بعاطفة الحياء، خوفاً من الحضور المباغت لوجهه المقنع بالغياب، أيكون أبي..؟ لا لن يكون. أيكون في نية الرجل ..؟ لا أدري ما يكون. أيضمر أبي زجي في حريم ذاك الرجل النافذ السلطان، والنافذ في

جرحي كطعم الخل الحارق، طمعاً بالأمان، أو لقطع الطريق على مشقة قادمة؟ أتراه يكون في جعبة ذاك السلطان الذي ما زال يتكنى باسم ابنه يا أبي، اسماً لي وهوية؟ لا يا أبي، أتمنى أن أكون على يقين أنك لا تضمر ذلك.

أيكون تبادل القبلات الكاذبة بين الفرقاء أهون من تبادل أشياء أخرى، حتى وإن كانت أكثر صدقاً، حينما تكون نتائج الصراع محسومة منذ البدء خارج ساحة المعركة؟

ترى على أي وعد سكنت ثورة العسس يا أبي، وعلى أي خيبة ستصحو؟

تبادل أبو نزار وعدنان الصافي نظرات تتزاحم في مغارفها حروف الكلام، لكنها ظلت صامتة في جوف المكتب الذي ضاق على نوايا الرجلين ما أن غادرته آكيتيا.

خرج السمين يبدد أنفاس الصمت الضيق، ويتلفع بظل المكتب قبالة سرج راحلته، يستنفرها للخوض في لعنة الطريق، ويستنفر الحسد المبطن بالتحدي في دم رفيقه المنتظر تحت غلالة الصمت على فوهة بركان.

ما أصعب أن تقتسم الغنيمة يا عدنان، حينما تكون عرش جسد كامل، وما أسهل أن تقتسم الهزيمة بكل إيثار، حينما تكون الغنيمة أشلاء وبقايا بلد. أمس وقف الشعراء على المذبح يا عدنان، ينحرون القصائد قرابين فداء للوجع المقدس، ويلطخون بدمها المزور صدر الضحية، وفرحة الناجين من الموت.

أمس تقاسم الفرقاء ما بقي من صدر المدينة عروشاً، وتقاسم الفقراء بصمت، وجع الضحية.

هل تعرف الجولان يا عدنان أو تعرف آدم العجوز ؟ هل تعرف كيف يجول بخاطر الجولان، جسر بنات يعقوب، وجسر الكرخ، ومعبر رفح، وبوابة عشتار، وباب المتحف وأشرفية بيروت الشرقية..؟ هل تعرف كيف تعربد في ذاكرته الحية خطوط التماس وخط الهدنة؟ هل تعرف آدم يا عدنان ؟ هل تعرف كم بذرة من دوار الشمس أكلت شباب أسنانه وهو معلق على أفق الانتظار، بين أنفاس الصباح وشهقة المغيب على أبواب القنيطرة؟

هل تعرف كيف كان شعوره آنذاك؟ وهو يحمل ابنته الرضيعة، ويجر مرضعة جف الحليب من عروق صدرها البيضاء واحتقنت بثفالة

الدم، ورائحة حديد العتاد المحترق شوقاً لكتابة اسمه في الهواء، ولو بطلقة طائشة، أو بقصيدة شعر في أرض سقط عنها ستر الهوية. ربما يستعيد آدم العجوز اليوم شريط الذكريات الأليمة لحظة لحظة. لم يكن آدم العجوز كردياً آنذاك يا عدنان، كان مهزوماً فقط. وربما أشعل جرح هزيمته الأخيرة جراح كل الهزائم، وأعاد لعقله المخدر ببرودة الثلج حرارة السؤال.

أمس عدت من الحرب يا عدنان بوسام مزور، وغنمت عرش المتبقي من صدر المدينة. وآدم الذي بقي فيه شيء من الشباب آنذاك عاد يحمل وزر الهزيمة، بلا وطن ولا هوية. ترى ماذا سيكتب آدم العجوز إذا مل السعف والقصب من برودة يديه، وأراد أن يكتب ولو من أجل رغبة في الكتابة؟



زمن يدور في تجويف الدائرة ثقيلاً، وزمن يفر خفيفاً طافياً على سطح الوجود. ورمل يزاح وآخر يحلّ ويقاوم سطوة يديه وهجوم الفراغ. وعزيمة الرجل لا تلين ولا بوادر الأمل تنضب. حتى يسحب الرمل أشلاءه الأخيرة عن صدر هديته.

شد الكتلة ا لرمادية من عروتها الرثـة، فاستحالت رمـاداً عفنـاً بـين يديه، غرز أصابعه في رطوبة الرمل ورفع جراباً جلـدياً خفيفـاً مبطنـاً بصـفيح رقيـق مـن النحـاس تعلـوه طبقـة خضـراء باهتـة مـن الزنجـار. فتّت قشرتها بهدوء كمن يقشر ثمرة دراق غويّة وسحب من داخلـها لفافـة مـن الجلـد، وعـاد داعيـاً رفيقـه إلى ظـل الجـرف مـن دون أن يفتحها، أو تبدو عليه معالم الاستعجال في كشف الغطاء عمـا تكنـه من سر أو ما تخفيه من مفاجأة.



تلاطمت أمواج المخاوف قي رأس آكيتيـا الحـائر في سـديم الوجـوه، وسرت دويبات القلق أسـراب نمـل تنهـب الألـوان مـن تحـت جلـدها الشـفاف، وتشـوش صـورة وجهـه المخبـوءة في مرايـا عينيهـا بأوبـار الدهشة. ودار صـحن الـدار في أفـلاك ذاكرتهـا بروجـاً شـوهاء، تنتـأ من حواشيها صورة سمعان.

لم يكتــب العجــوز منــذ غــادر سمعــان ذات صــباح مشــابه لهــذا الصباح، فلم يشأ أن يجرح جلود الرقاع بنصال مسمومة، كما قـال. أراد أن يعود نباتياً بالكامل، ويبدأ من بدء الحياة. ولم يشـأ أن تقـيء

صفحات أخرى من سموم الحبر، فمن له شكيمة بعد على اجترار القيء من بطون الصفحات. ولم يشأ أن يسمل عيناً أخرى من عيون الكون، فهو بثلاثة عيونه نصف أعمى، وضيق أحياناً حتى بثلاثة أبعاد.

أردت أن يكون لاسمك يا آكيتيا جسد كامل، فأرسم على جسد كل قصبة من هذا السعف شهية لعناق حرٍ بين جميع النظرات. قالها العجوز ذات يوم بغصة عوز تحولت تحت إرادة يديه مهارة. وحشرجة نَفَس صارت على ثنيات السعف اللين مدارات خصب ورطوبة حياة.

لعل الإنسان لم يكتب إلا رغبة في الكتابة، أو لأن غصة دمع عزّت على العين، فأربكها المخاض، وطفرت من شرايين الأقلام مواليد من الحروف تتنافس في نهب البياض من صدور الصفحات، وتنتحل من شغب الألوان أسماء تختال في بريق العيون، وترج فينا غريزة المُلك لجمال تستر طويلاً بداخلنا، ولم يعلن سر هيبته إلا في صدور الآخرين. أليست تلك رغبة كاملة؟ لكن ماذا إذا كانت غصة الدمع كبيرة، وتعصى على مسام القلم الدقيق، وصدر

الصفحة الضيق؟ أتولد غير حروف مثلثة التكوين، وعلى أبعاد جسد كاملة، أو لهاث أنفاس تتزاحم على عقود الصوت النازف من زفرة صدر قيثارة توسع من تزاحم بنات الفراغ.



بدت على وجه آدم ملامح فرح ملتبس لوصول شريك الرحلة إلى غايته، لكنه ظل صامتاً، يتأمل فيما ستفصح عنه عينا الرجل المحدقتين بشغف في حواشي الصفحات المصفرة من فعل الخزن، نائماً على حيرة سؤال يعتلج في داخله، منتظراً ثبوت حدقتيه المتأرجحتين بخفة طير يغزل شرك طرائده من أوتار الفراغ. أتكون تلك الأوراق الصفراء غاية الرجل ومآلاً لهذه الرحلة؟!

يا لمشيئة المصادفات .. اكتملت قصتك الآن يا آدم، ، "فأحيقار" لم يمت على صليب الدسائس. فلا "نادان" أفلح في كسب الغنيمة ولا وريثه نجح. أجل اكتملت قصتك الآن، فها "أحيقار" آخر مثله قد مات وأنقذه. نطق الرجل كلماته بعد صمت طويل وهو يشير إلى لفافة الأوراق ويعيدها إلى غلافها الجلدي، موحياً أن كنز معلمه المدفون في ظل ذاك الجرف النخر لا يتعلق بكهف الكنوز، ولا بجنة

الرب. ولم يكن حسبما تشير ملاحظات الرجل على الهوامش، غير أوراق مطبوعة عن أوراق بردي تحمل قصة "أحيقار" الآرامي في بلاط آشور، وحكمته، اكتشفت في موقع أثري في مصر[6] في زمن سابق، وتعرّض صاحبها للملاحقة من جماعة مجهولة، كغيره ممن عملوا في هذا المجال. فدفن الرجل جرابه في هذا المكان وأرسل مع دليله جراباً مماثلاً، احتوى على لفافة جلد مماثلة لكن أوراقها فارغة، ودفتر مذكرات صغير وذاك الكتاب المصفر الورق. لكن الجراب الذي وصل مع دليل الرحلة لم يحمل إلا الكتاب ودفتر المذكرات الصغير فقط.

أرأيت يا آدم؟ لم تكن الأفعى إلا طريقاً لرغبة المعرفة، ولم تكن الكأس غير جلد الماء، وكل الحقائق تدفن أسرارها في رمل الوجود وعلى موارد الماء.



---

[6]– أكتشف النص الآرامي بيد البعثة الألمانية في جزيرة الفيلة في مصر سنة 1906 على أوراق البردي، ويتألف النص من إحدى عشرة صفحة ثلاثة منها تحمل قصة أحيقار نفسه والباقية تتناول أمثال أحيقار وحكمته الشهيرة. استشف العلماء أنها تعود للقرن 5 ق م.

سبقت دموع آكيتيا الحائرة بين الحزن والفرح تحية الصباح لأبيها وهي تراقب ارتجاف القلم بيده على صدر الصفحة البيضاء، وتماوت صوت الحروف على جفاف لسانها، وجمد الكلام. رفعت إبريق الفخار ورشفت من جوف هويته الجديدة رشفة من ماء تشكله المنسي، توسع الفراغ في جوف حلقها المنكمش على حرية اللسان، وتوسع فراغ الانتظار الناتئ من فصال اللحظة عن صدر الزمان، لعلَّ الحروف تخرج من بوتقة الصمت، أو يبادرها العجوز ببادرة السؤال.

ماذا تكتب يا أبي؟ قالتها آكيتيا ببحة صوت يغزل الهواء تباشير سلام، كأنها تومئ أن مشوار الصباح إلى المكتب لم يبرر هواجس الأمس الثقيلة، وإن كان يثير بعض الحفيظة والشك.

رد العجوز ويداه ترتجفان كارتجاف اليقين الزائف في لحظة الشك، وارتجاج الصورة على صفحة الماء: أكتب رسالة إلى سمعان الراعي.

سرت قشعريرة الوقت تحت جلدها الرقيق توقظ أحاسيس الذاكرة، كررت السؤال النافل بمرارة:

أي سمعان يا أبي؟

أين سمعان الآن؟ وأي قدر سيحمل رسالتك إليه يا أبي؟ألم يمت سمعان؟

لا لم يمت، لكنه مازال يموت، منذ مات ما في نفسه من فرح على بعد ثلاثين ميلاً ومشنقة من حائط الجسر الواصل بين الموت والحياة. ومريم ما زالت هناك، تلعب (الغميضة) مع شجر العليق كوردة وليدة، ترعى قطعان النحل البري، وتحف ساقيها من وجع الشوك الطيب، وتنتظر عبور صوته من هناك. فمن أي شجرة من روضة العليق، ومن أي قطرة من جدول الماء يمكن أن يولد سمعان .

حارت آكيتيا في حال العجوز، وفيما يقول وفيما يكتب، كيف لم يمت سمعان وكيف .. ومن مريم تلك التي ما زالت شجرة عليق ترعى قطعان النحل البري؟! وامتد الفراغ في ذهنها أكثر مما حولها من فراغ، كأن الرب لم "يولد".

لم تعرف آكيتيا شجر العليق مذ ولدت إلا من سوقه الشائكة، ولم يجل في خاطرها الجولان إلا في القصائد والموائد، ولعبت معه (الغميضة) لزمن طويل. فهي ولدت في زمن الخراف المعدة للفداء على شرف القدس، بإلّيات سمينة، ومعاليق حواس نخرة.

هل تعرف العليق يا "أحيقار" ، وخراف الفداء المقدس؟ من المؤكد أنك تعرف يا صاحب الحكمة ، فأنت سيد هذا الباب يا أخا الكرم ، ونبيه المبجل. ستة آلاف جلد وستة آلاف كبد وإلية ، تركتها لبغاء الفقراء في حواسها المقدسة ، وغزل فرائها المغسول نواميس لستر النية الزلقة. ستون امرأة يا ربيب الملوك وستون إلية ، كشفت فراء القرابين عن بياض تألقها في هدأة الليل ، نجوم هداية على طريق الخلود المقفر من حلول الآلهة ، وأورثت الرسل رسالتك الموبوءة تشريعاً للزمن القادم ، وزرعت في شجاعة الرجال عثة الخوف من إلية المرأة. ستون امرأة يا رسول البنوة والخلود ، والستة في عرف لغتك عدد كامل ، لم يفض النسل من ماء الفتنة ، في جسد أي منهن ، ولم يولد الإله. ولدت من فتنة جمالهن لغة الحكمة ، وأسفار الخصب ، وغنائم الحرب ، وفلسفة الإغواء .

هل كنت تكتب أسفارك يا "أحيقار" تشريعاً للزمن القادم أم كنت تكتب سيرتك الشخصية؟ هل تعرف كم سفراً من الألم كُتب على طريقة ألمك يا "أحيقار" وكم سفراً من الفرح كُتب عن فرح عودتك من الموت الزائف وكم سفراً من جنون الجن في قلبك الحزين ، كتب عن الجِنة والجَنة.

وكم حلماً من أحلامك الصغيرة صار مع الوقت حلماً كبيراً؟

لو كنت تعرف يا سيد الحكمة، كم كنت أحببت الموت وحيداً في خلاء الكون، بلا حزن إلا على ما في الكون من الحزن، وبلا ألم إلا على ما في الكون من الألم، وبلا فرح إلا على قدر ما في الكون من الماء.

لو كنت تعرف يا "أحيقار" لأرحت خرافنا من حريق المذابح وقمصان الفداء، وأرحت نساءنا من جلابيب السبي المشرع. وأرحت عقولنا من وهم البحث عما في صدر المرأة من أسرار، وعن سر الخجل في نظرة عيوننا الكسيرة في ماء جسدها الشفاف. وأرحت كل عنين من وجع العنة، وأرحت العالم من تاريخ الحروب حتى يفيض الكون فرحاً بكل اللغات وكل فنون العشق، ويستريح الله.



غاب آدم في صمت يتأرجح بين ملاسة اليقين وتعاريج الشك، فيما شريكه مستلق على الظل المتبقي لحقيقة الجرف بمشاعر تتأرجح ما بين الحزن والفرح. حزن على ما فقد، وفرح بما وجد.

ماذا بعد يا آدم؟ قالها التاجر والكون من حوله يغرورق في صفرة شهباء من نية الشمس في رقص فرحتها بجلجلة اشتهاء علني لعري كامل.

لا قبل ولا بعد يا شريكي في هذا الفرح، نحن الآن في رحم الحقيقة، حدان على خطل التبرؤ من مواقيت الرغبة، ووجهان من زيف التمتع باكتمال الغاية، دعنا نشرب يوم الراحة عن آخره لئلا نندم، أو نمحل الأرض بطوفان جديد. فقد ندم الإله قبل اكتمال يوم الراحة. دعنا نعد إلى الماء فما زال فينا جفاف العصور، وفي الماء بعض صفات تنقصنا. فالماء ما زال يحل جميع الألوان في فرحة رقصه وجميع الشهوات، وعلل حواسنا الكاملة ويبقى ماء. والماء لا يتنكر لهويته الأولى أو هويته الثانية، يسقط من جنته فرحاً، ويبني فنون معماره فرحاً، ويرسم كل لوحات العشق الجميلة. يغني فرحة سقوطه طرباً، ويعود لجنته خفيفا من دون خوف، ويعيد خطيئته الجميلة. ويسري في أرواح الخلق ألقاً وحباً وخصباً، والماء ما زال يقبل معانقة الماء والتوحد فيه، ولا يتنكر لهويته الجديدة، حتى وإن كان بعضه عكراً.

أتعرف ما أكبر رغبة تجتاح مشاعري الآن أيها الشريك؟ أريد أن أنزع عني كل ثياب العصور وثيابي العصرية حتى العري الكامل، وأنتقع بالماء لأشرب فرحته حتى الثمالة، وأشرب وحشيته حتى الامتلاء. ثم أدفن كامل جسدي في الرمل واصرخ صرخة الولادة من جديد، وأفتق عباب الفضاء صراخاً حراً حتى تولد لغتي. وأكلم الله بأسماء جديدة، وأختصر كل الصلوات بكلمة واحدة.

لكن الخوف لا ينحل في الماء يا آدم، والندم لا ينحل في الماء، حتى وإن كانت النية صادقة.

أنا لا أتطهر من خطيئة أكررها أيها الشريك، ولا أجتر أدعية خلاص حفرت في آذان الرب دهاليز الملل من طلب التوبة. أنا أولد من اسم جديد. إن شئت فاحلق لحيتك واتبعني، وإن لم تشأ فكل نجم في السماء طريق وهداية. لكن أرجوك لا تقم الحد على حرية صراخي.

❖❖❖❖

لم تطق آكيتيا الوقوف بجانب العجوز الغارق في موجة الحزن حتى الجنون، أو في جنون الفرح حتى مراميه الأخيرة، تركته يعاقر وجع

الأيـام الخـوالي علـى صـفحة الـورق، وصـفحة الشـمس. وعـادت تـدفن وجههـا في صـندوق أمهـا المطعـم العتيـق، تغـرف مـن جـوف سكونه العميق أجنة الأمـل البيضـاء مـن تباشـير الجمـال المعلـق علـى مرارة الصبر. أضيق هو الكون يا أمي كصندوق أثاثك القـديم هـذا، وتابوت العهد؟ أكسيرة نفوسـنا إلى هـذا الحـد يـا أمـي ومازلنـا نبكـي على ثـديك الـرحيم تـاريخ فصـالنا المعـذب بـالحنين إلى جنـة الـرب، وكهف الكنوز ودفـء الرحم؟ ألم يبكِ ذاك السمين علـى صـدر أمـه يومـاً؟ ألم يبـكِ ذاك العـدنان قبـل أن يحمـل سـبحة الخـرز المطعـم بالرصاص، ويصير خشن الشعر وقاسي القلب ..؟

كم من رجل بكى على سفحك الأبيض المحرم كسفح حرمون، أيها النهد؟ وكم من دليل لم يذكر اسمه التاريخ خجلاً، وكم تاجر ترك عتاده هناك خوفاً من الموت، أو الغرق في ثلوجك البيضاء، شـواهد زور على فصالك الأليم ولم يذب الثلج؟

لم تقل العبارة الأخيرة آكيتيا، بل كانت تغيب في بكاء صامت علـى صدر "تابوت العهد" فيمـا كـان آدم العجـوز يقـرأ العبـارة الأولى مـن رسالة سمعان بصوت مسموع.

.. هل تذكر أباك يا سمعان؟ ذاك الفتى الدليل رغم رفض مختار القرية آنذاك، والذي سحب المؤرخ الهاوي من كتفيه ورجليه المتورمتين من حرارة الثلج بعد أن نفق أتانه الهزيل، وأوصله إلى البلدة معقود اللسان، وروى بلسانه تفاصيل الرحلة.

لا أشك في أنك تعرف أباك يا سمعان، وترعرعت في دفء حضوره الكامل، وإلا لصرت نبياً. أبوك كان ذاك الدليل يا سمعان وأنت صرت المبعد والملاحق والكافر.

أما زلت تحلم بالعودة يا سمعان وما زالت تلك الجميلة تستحم في عينيك ؟ أي (غميضة) لعبت معها يا سمعان على دولاب الشوق وخازوق المحبة؟ وأي اشتهاء للموت يا سمعان على عمود سمعان العمودي الآسن بالدود وخازوق الخلاص؟!

ثلاثون موتاً لحواسك يا سمعان في اليوم الواحد، على خمس فروض وسنة، وهذا الوطن العنين ما زال يستفتي الأنساب، جواز صلاة الرجل بنصف وضوء، إذا دخل بزوج أبيه أو بنت أبيه وجواريه، على سنن الملوك، وجواز حرق الزائد من ضحايا العيد، وبقايا الوثنيين عبيد السودان، لئلا تعود ضلوع الأطفال السود من

فوق جلودهم إلى باطن شحمتها، ككل ضلوع الخلق، ويُتهم الولاة المخلّصين بالمروق والردة. ثلاثون موتاً يا سمعان في اليوم الواحد، وثمان وسبعون بلاغاً أول، من عمر رجل في أول خريف العمر في دنيا الأقحاح المكرمين، وما زلت تحلم بالفصح والإفصاح عن تاريخ موتك وتاريخ ولادتك، وعن جثتك الحية أو جثتك الرميم في أقبية الخلاص، وما زلنا نستجدي من العنين وصحبه، حرفة الجند واحتراف الهوية.

وقفت آكيتيا في فرجة الباب نصف المفتوح كجرح لم يندمل، تنظر إلى وجه العجوز المعتم وعينيه المغرورقتين في زرق الدمع المعلق على جفن المفيض ما بين صحو الرؤية وغيم النظر.

أي جرح فتحت في تاريخ حزنك الطويل يا أبتي، أي جرح؟ ما الذي أيقظ سمعان في ذاكرتك الشقية هذا الصباح؟ وعلى أي وعد سكنت ثورة العسس يا أبي، وعلى أي وعد ستصحو؟

❖❖❖

أنهى آدم المنسي طقس ولادته الجديدة من رمل القواميس وحروف العلة مضغة نبي شوهاء، ينقصها سلام النفس وصبوة الروح،

فباعثة الحياة بعيدة هناك، ما زالت واقفة على ضفة الجرح، تنظر في وجه أبيها المعتم كخريف عمره، وتغسل روح العالم الكتيم بماء التوجس والانتظار. وهذا الرمل المغرق في عطش العصور، ينهب فرح الماء من كل الرسائل. ورسالة حبها الأولى التي وهبته حرارة الحياة في مطلع شبابه، وأخفاها في مخابئ الأسرار ولم ينجح، ترقص منذ الأمس عارية من جلد الخوف الكتيم بين يدي رفيقه التاجر، بفرح ينفض عن روح بابل غبار العصور، غير ما كانت ترتقص بين يديه تحت قشرة الجوز، بفرح مهرب كتبادل رسائل الغرام الممنوع، أو كتبادل قبل الحبّ المحرمة. نهض ينفض عن جسده عوالق الرمل، وعاود الاغتسال في الماء العكر، لكنه ظل حزيناً. لبس ثيابه دون أن يجفف جسده من قطرات الماء، فيما شريكه يشد متاع الرحيل.

هاك هديتك الجميلة يا آدم، أعدها إلى مكانها الآمن إذا أكملت طقس ولادتك الجديدة وارتداء ثيابك. كل شيئاً يسند جسدك ودعنا نكمل لعنة الطريق.

نظر آدم في عيني رفيقه ومعالم الحزن بادية على وجهه تحت سحب

الخريف المنحلة في بشرته السمراء، كأنه يتمرأى ذاته في الوجه الآخر، ويقبض على تفاصيل الفروق فيما بين الحقيقة والخيال. نطق بعد برهة صمت أربكت يد الرجل الممدودة بهديته، كخبز المناولة. نطق بصوت يغرف الثقة من بلاغة الهدوء الحزين: هي لك أيها الرفيق منذ أن رقصت فرحاً بين يديك. هي هدية لك، فأنت تعرف قيمتها أكثر مني. لا معنى لهدية نخاف أن نظهرها أو نخجل بها، ككلمة الحب، حتى وإن كانت محفوظة في شغاف القلب، إلا إذا كنا نحبّ التلذذ بالعذاب.

هم الرجل بكلام لم يكمله، فربما أراد النطق بعبارة شكر على الهدية، أو الاعتذار عن قبولها لما عرفه أمس من حديث آدم المنسي عن سيرة تاريخها الطويل، حتى وصلت إلى يد أم آكيتيا المتوفاة وحيدة في عراء الغبيرة، وهي تفخر بأصولها الأشورية العريقة وقرابة سمعان الراعي وحكمة "أحيقار". فيما زوجها يقبع للمرة الثانية في قبو كهف مجهول من أقبية التاريخ الحديث لوطنهم المشترك، يشبه كهف الكنوز، وكهفه القديم الذي سكنه طويلاً مجاوراً لعدو الأمس المتفاخر بهويته العريقة هو الآخر، وعدو رفاقه القدامى المهزوم في ميدان الحرب على عرش مدينته الجريحة بجرح

الاغتصاب المتكرر، والذي أحبت آكيتيا ابنه آدم المنسي سراً لوقت طويل، قبل أن يجمعهما طريق الهرب عبر رمل الحدود المصقول بخفيف حفاء المهاجرين والمهجّرين على مر العصور. ذاك مجرداً من أسرته الصغيرة وبزته ذات الطيرين اللذين تعلقت بهما طفولة آدم ودمعة أمه، وذاك يجر خيبته وأسرته الصغيرة مثقلين بثقل الهوية ولعنة الطريق إلى جبال الكورد، ومتخففين من ثقل الجنسية.

عاد الرجل إلى صمته عدة مرات فيما آدم المنسي يقاطعه ما أن يبدأ في الكلام: أجل أيها الشريك إنها هديتك التي تستحق، أرجو أن تقبلها فلربما تجد الفرح المفقود من عمرها الماضي بين يديك، وتستعيد زهوة جمالها.

لم يساور قلب آدم الشك أنه لا يقدم جوهرة العقيق الأحمر ورمز الخصب ودورة الحياة المحفورة عليها بخطوط متقنة الصنع بيد عرفت معنى الحبّ، هدية لرفيقه الغريب فقط، إنما يقدم جمال محبوبته وجسدها الفتان، الذي أخفاه في كهف قلبه حتى الأمس خجلاً، أو خوفاً من أن يشاركه فيه أحد ولو بمجرد الشعور أو النظر، وجسر الشوق كما أسماه سمعان، ومريم وغابة العليق وقطعان النحل

البري، وقصة حبه، وجسد مدينته. أضاف آدم من دون أن يتيح لرفيقه متابعة الحديث، وظل الكلام يعتلج بداخله من دون صوت: أعرف ماذا ستقول، وأعرف أنها هدية حب كبير، ومن الواجب أن أحافظ عليها، لكنك الأحق بها. فأنا دفعت كل ما كان في جيبي من المال يوماً لذاك الشرطي وكل ما في قريحتي من كلام التملق والاستجداء لأعيدها إلى مخبئها خوف أن يراها أحد، وأنت دفعت أكثر مما دفعت في حياتي كلها، ووضعت عمرك على محفة الهلاك في هذا الرمل لتظهرها، كغيرها من الكنوز الدفينة في مخابئ التاريخ وتعيد لها بريق المعنى. ما زلنا يا شريكي شريكين في بعض هذا العماء، نحافظ على هدايانا بدافع أخلاق الواجب، بل وأكثر من ذلك: مازلنا ندافع عن نسائنا وأولادنا وأوطاننا بدافع أخلاق الواجب وغريزة المُلك، المُلك الذي ينحط تجاه النساء إلى حدود الانتفاع المشرع أو الحلال، ونعلي أسوار منازلنا وحقولنا، ونسوّر أوطاننا بجدران العزل وهياكل الجنود والفزاعات العصرية، ومطية السلطان وشهوته، ونحرسها كما يحرس الحيوان نطفته بغريزة البقاء، لا بدافع الحب، ونخسر الحرب من أول معركة.

أجل أيها الشريك إني أهديك رسالة الحب تلك وأعتذر من وجه حبيبتي الغائب الآن، مع أنه ما زال يختال أمامي باكياً كما كان يوم أزمعتِ الرحيل المفاجئ كزيارة الموت، قبل سنوات مضت طويلة كوجع الانتظار، وهي تأخذ هدية أمها بعد أن حضنتها على عجل بحنان غامر، وقالت لها: هذا كل ما أبقى لي الزمان. حفظتها لأجلك كما تُحفظ الروح، وأعطيها لك الآن قبل أن نغادر، فربما فرقتنا الطريق ولم يجمعنا الزمان. يومها أخذتها بيديها الناعمتين وعلقتها في عنقي وقالت: لم يبق لي في هذا الوطن وجود ولا اسم، ولم يبق له بدونك معنى، احملها دائماً معك وسيزهر حبنا في كل ربيع، حتى لو مات الكون من الجفاف.

والآن أيها الشريك لم يعد لبقائنا في رمل هذا العراء معنى، فدعنا نخرج من أوداج هذا النهار الطويل، ونشد الرحال للسفر.

لكن كيف ستكون وجهتنا الآن يا آدم؟وعلى أي بوصلة سنقتفي أثر الشوق في تجاعيد الطريق؟

لا فرق في جهة الدوران يا شريك ما دام الإنسان لا يقع بعكس الجاذبية، ومن جهتي فما زال الشوق يجذبني إلى عينيها، وسبق أن

أخبرتك أمس أني تنازلت عن بقية الأجر، واليوم قد تنازلت عن جواز السفر، لذا سأعود، أجل سأعود ولو لأجل رغبتي الآن في العودة.

وأنا وجدت ما جئت أبحث عنه يا آدم، وربما كان يجب أن أقطع هذه المسافة، وأتحمل هذا العناء لأجد أن ما جئت أبحث عنه كنت أحمله منذ البدء معي، فأي عبث في أن نبحث عن الإنسان خارج الإنسان، وأن نبحث عن وجه الله في الرمل. فلنكن رفاقاً في طريق العودة إذن، ولنتخفف من بعض المتاع، فالطريق المعروف أقصر من الطريق المجهول وإن كان في الرمل نفسه، قالها الرجل ورفع دفتر جيب سميك من جرابه وهدية آدم وبعض خردوات مختلفة الأشكال من حوائج السفر، وأفرغ ما تبقى من حمله في مستنقع الماء، بما في ذلك كتابه المصفر الورق. وسارا على إيقاع الضمائر الخفية، كل يحمل أشواقه على محفة الغاية .



ستة صباحات وستة مساءات ما بين المغادرة والوصول، وستة صباحات وستة مساءات ما بين العتاد والهزيمة، وست عيون. ست عيون تستجدي يقين الخلاص من نثار سديم الكون القديم في فرجة سماء عبوس في غرة الصيف، وقمر هزيل يهرب من وجع يقينه. والرب يعلن تمطيه في هدايا الخلق الأخير، مدبر الوجه، لئلا يطفئ بنوره البهي عيون المنتظرين على قارعة الطريق، عبور حافلة الجنة. وحده آدم المنسي في رمل القواميس في الطورين من وجع الخليقة، كان يطوي حاجبيه على منارة البصيرة الشوهاء في وجهه، قمرين هزيلين من يقين الحزن المبلل بماء جسده المالح، وشظايا أشواك العليق. وينظر في أفلاج الأرض الموبوءة بنقص الهوية. يستر ما انكشف من عورات في جسد حقله المصفر كعروق الشمس الخجولة، ببصاق الأغاني القديمة. ويستر ما انكشف من عورات الأجساد البشرية، بالدمع المعفر بالتراب.

وستة صباحات وستة مساءات والشمس تنسل ضفائرها في كل صبح من يدي خريف تشرين الرمد، ثم يخطفها، وركب الصحراء العائد من طقس مران العقل في رمل البداءة، يتلقف جُنَحَ الأمنيات من صدر طائر المغيب، قبل أن يضيع في وكنة أسرار الغفلة، ويعاند

نواميس الكون في سنن النوم. يغازل الشمس غزلاً شرقياً، يفرش أجنحة الحلم الوثير لنحنحة قدميها الخجلتين على مفترق الخيال، ويتستر بأدهى جلابيب الظل آن تبرق من وجهها الذهبي أحايين اللقاء.

ستة صباحات وستة مساءات وعيناها تغرفان الصمت الذاهل من وجهه الخلاسي الطافح بهجين الألوان، وتنثره على علل الوجود مواكبَ تشيّعٍ مهيبة الصف الساكن من أوتار الكلام، مسجاة بنعوش حروف تنسحب انزلاقاً بدئياً، على ارتجاف اللسان الحائر في مخاض الوصف العسير، ومراكب أصوات العلة. وتداهن أوتار تواصله المنكوبة، بمنقوع المر والحريف من نبت الرمل الهزيل على عقد مواعيد اللقاء الموقوت ما بين الحرف والصوت، ونية الكلمة. وتخفق في إغواء لسانه الطفل على الحبو الجديد في ملاعب حلمه الواسع.

ستة مساءات من عمر نزوح آكيتيا من شرفة نجواها الليلية، وستة صباحات من عمر نزوحها الثالث على مشنقة الثلاثين قدراً من التوق الكفيف في حبات السنين على عقدها الثالث.

ستة صباحات من عمرها المهدور في شغب الرمل بساحة أحلامها في أرض الغبيرة، ولا عزاء لقلبها الكسير سوى انتظارين يحفان جلديهما المشبكين بألياف الوقت وزيف اليقين، يتبادلان أطوار النبوغ الوهمي في أفق رؤيتها، وينجدلان على ضفيرة الاحتمال المكنون في غيهب التوقع: انتظار أن يستعيد العجوز حرفة لسانه المنكمش على دهشة الكلام، وانتشاء الغياب في مواعيد زيارة العسكر. وانتظار القادم من خاصرة الرمل بجواز عبور ذلق الأوصاف، يحل بحلاوته صفاقة شرطي الختم، وكدر الكتامة في نفس منافذ الحدود.

ستة مساءات وستة صباحات قبل أن يرتاح الرب لحسن فعلته، واكتمال تشكيل الخلق بطرد المخالفين والمعارضين. وينشر حرس الحدود وسيوف النار على أبواب جنته الشهية، لئلا تفر حورية سمراء من رغبة الحرس الثقات، فتضيع في متاهات الرمل وتفقد عذريتها. فتختل موازين الحساب، وينقص من حصة أحد المَبَشَّرين بدار اللذة والبقاء بعقد التسبيح، متعة ليلة. وتثير في نفسه وسواس الاعتراض على موازين القسمة، فينكث عهده القديم، وتدفعه فورة الدم لثورة الثأر، وتدبيج بلاغ أول لانقلاب جديد.

ستة صباحات وستة مساءات مضت ولم يعد أبو نزار ورفيقه عدنان الصافي لزيارة آدم العجوز وحورية الرمل الصهباء، ولا لزيارة الغبيرة والمكتب. وجوه غير الوجوه حلت في ساحة البلدة، وأصوات أنين غير أصوات هدايا العنين، تخرّق مدارات الأرض ومدارات الفضاء. والرمل هو الرمل يطابق حقيقته حتى الملل. ولسان العجوز يعصى على إغراء الكلام، ومداد القلب جف من حبر القلم. ووجه آكيتيا الشاحب ينتظر الخلاص على مفترق الحقيقة، مع كل ومضة برق تشوي صلصال دشم البيوت وشحوم الأجساد السمر، لتغتسل الأرواح الشهيدة في ماء اللهب.

ستة صباحات وستة مساءات والسماء غير السماء، وأرض الغبيرة غير الأرض. وخريف تشرين الأخير سلم مؤونته لأواخر شتاء ساخن وربيع من دون عيد. والحدود غير الحدود، ومن عاد من جثث المبعدين إلى أرض السلام، لم يُسأل عن جواز السفر. والخيمة هي الخيمة، سواء نسجت من شعر الماعز البري كإنشاد سليمان، أومن وبر الأرض ونخالة الصلصال والماء العكر.لا فرق بين المنزلتين في عرف الخيام، بين خيمة تهم بالرحيل كلما

جف الخصب من أطنابها، وخيمة مازال يسكنها الخصب وينزح عنها معنى التساكن وروح الزمان ومعنى الوطن.

ستة صباحات وستة مساءات خلت من دورة الخلق، و"جسد" الرب يتمطى على أحزان المنبوذين، وآدم العجوز يفترش المقعد الحجري على مفترق العصور في بهو القلعة، يتأمل تمثالاً تتعربش على سرج حصانه ألسنة الثوار، عله يحل عقدة لسانه الكسيح، ويتهجى اسمه القديم صلاح الدين، ويسأل شبيهه في حروف الاسم، ألا يجفل حصانك الطيني من لوثة المدينة؟

ستة مساءات وستة صباحات وصلاح الدين الحجري المطلي بطلاء العصر، ينتصب على مدخل قلعته الحصينة، ومفاتيح اللاجئين في رماد المدن القديمة، وصلاح الدين مصطفى أغا (آدم العجوز) يتكور في قبو القلعة، ويعقد زنديه على ركبتيه مستنداً إلى حائط البرج الشمالي، المشطوف بطوب مدفع سليم باشا المحاصر هناك قبل أن يفيق الثوريون من بلل طفولتهم، مخافة أن يصله البلل العفن في الزوايا المحرومة من وهج الشمس، وقبل أن تُنتحل الأسماء، وتهجر البيوت أسماءها وتكنى بأسماء الحرائق، كما تكنى السمين

باسم ابنه نزار. وقبل أن يصير لساقيّ مريم وجسر الشوق وقطعان النحل البري معنى في ذهن سمعان. وصلاح الدين أغا (آدم العجوز) يتهجى اسمه القديم ولا تنفك عقد اللسان. فلا الوجوه وجوه ولا اللسان لسان، ولا بردى يزيل الغشوة عن فرح القلب، ولا الربوة تفرح بمقدم نيسان. ولا الطيور طيور في زحمة المناكب ولا الفروع أغصان. وحزن يترصد نعشاً يسايره، وجرح يدغدغه الألم فيضحك، خوف أن يتهم بالوجع المهرب من دول الجوار، ويعكر صفو النفوس الآمنة.

ستة صباحات من يقين لاجدوى البحث عن الغائب في صمت ارتحال الكلام عن جسر تواصله المنكوب، وارتحاله في خاصرة الرمل العتيق بحثاً عن لسانه المفقود هناك، بجانب قبلتها الزاخرة بالصمت البارد فوق مثواها الأخير، كأعمدة المعابد وبرودة الرخام.

ستة مساءات وآدم المنسي وحيداً، يستعجل قدر الصبح بضوء شرفته الشرقية. يحل الليل في فنجان قهوته السمراء ويحل ألغاز العلامات في دفتر الجيب السميك، هدية رفيق رحلته في امتداد

الرمل، للبحث عن كهف الكنوز المخبوء في مركبة الخرف العميق، في المنحدر الفاصل بين وهم الذاكرة وشقاء الروح.

وستة صباحات وآدم المنسي في بيت عتيق، وأثاث ينخره ألم الفراق وسوس الذكريات، وآدم العجوز صلاح الدين يهرب من مدن سرقت أفراحه، ويهرب من صورة وجهه في عيني ابنته المعتقتين بزرقة الأفق الوهمي واختلاط البحر بالسماء، ويتيح لوجه آخر فسحة الارتماء في مد زرقتهما المعتق. ورفيق الضياع العائد من هوس استنطاق الرمل، يعقد مؤتمراً في بهو متحف التاريخ القديم، ويراقص هديته في مدن تحفل بمعنى التاريخ، وبما في نفوس البشر من ألم الذاكرة، ويقول في كلام مقتضب: تلك هدية ناطقة باسم آلهة الخصب من أرض بابل، لم يحفظها الرمل ولا ثلج العصر المطير، حفظتها قلوب أدمنت الحب وأدماها وجع الانتظار.

ستة مساءات وآدم المنسي يحلم أن يعود الكون صغيراً كأيام طفولته، وستة صباحات والمصادفة تطرق باب الانتظار بلا ملل من يأس المنتظرين وبرودة الأبواب. من قال أن المصادفة ليست من قوانين الكون، وأن التنجيم غير

فسق المصادفات في عين الحقيقة. ومن قال أن صوت نعليها على درج الوقت الهارب من فصال اللحظة في كهف الكنوز المجاور لجنة قلبه، وفي مرتع طفولتهما القديم لا يحمل حقيقة حضورها الكامل؟

أنتِ ... قالها بدهشة نبي، تجسدت رؤاه الليلية لطيفها الفتان يدرج في علل اشتهائه السري، جلاء من اختمار الصفات المشبعة بطعم الحضور الشهي، في شهقة الزمان الخائف من ارتطام قدميها بعتبة الباب.

ستة صباحات وستة مساءات وآدم المنسي يقرأ الفصل الأخير من كتاب تاريخها الطويل في زرقة الحبر المتفشي في ماء عينيها، ويتردد في صوغ العبارة.

مات شهريار في التباس التقاويم، وشهرزاد المدن الحزينة مثلها تبتلت أرملة.

ضاعت أوراق آدم المنسي وبساط آكيتيا ورسالة سمعان في ذمة التاريخ، وصدور المنسيين. وضاعت أسماؤهم في أدراج المخابئ الخائفة. وآدم العجوز صلاح الدين يعاود طقس مرانه الصباحي في

أرض الغبيرة، يؤنس وحشتها بوحشته، ويعتذر عن الغياب بالغياب. ويسرّد سعفاً من نخل جديد، ولا يكمل الفصل الأخير من كتابه لئلا يصير كتاباً كاملاً.

وآدم المنسي يهجر حرفة الوراق، وينفض عنه دويبات الرمل وثياب العصور، ويغتسل في أزرق عينيها.

تزوج آدم المنسي وآكيتيا ثلاث مرات من دون كتاب شرعي، ومن دون شهادة أحد، فآدم ما زال منسياً في رمل القواميس، وهي لا اسم لها ولا هوية، وبدلاً من كتاب زواجهما الشرعي المفقود، كتبا هذا الكتاب من وحي الذاكرة. وبقي الفصل الأخير منه فصلاً غير مكتمل. ربما تركاه كذلك بمحض إرادتهما. وربما ارتسمت على شفتيهما لغة جديدة وأسماء جديدة ...

ستة مساءات وستة صباحات من تعب الخلق، واستراح الله.

وآدم ما زال يكمل كتاب آدم



دمشق /تموز/ 2010